تفسير
سورة الزمر
(كبار)

جمعية اقرأ للعلوم القرآنية
IQRA SOCIETY FOR QURAN SCIENCES

مسابقة اقرأ القرآنية
النسخة الثالثة عشر

1441-2019
iqrasociety

جمعية اقرأ لعلوم القرآن
IQRA SOCIETY FOR QURAN SCIENCES

تفسير
سورة الزمر

(كبار)

مسابقة اقرأ القرآنية
النسخة الثالثة عشر

1441-2019
iqrasociety

محتوى سورة الزّمر

هذه السورة نزلت في مكّة المكرمة، ولهذا فهي تتطرق للقضايا المتعلقة بالتوحيد والمعاد، وأهميّة القرآن، ومقام نبوّة نبيّ الإسلام (ص) كما هو الحال في بقية السور المكّية.

فالمرحلة التي قضاها المسلمون في مكّة كانت مرحلة البناء الإيماني والعقائدي، ولذلك فإن السور المكية تضمنت أقوى البحوث وأكثرها تأثيراً في هذا المجال. وكانت الأساس القوي المحكم الذي ظهرت آثاره العجيبة في المدينة، وفي الغزوات وعند مواجهة العدو، وأمام عراقيل المنافقين، وفي قبول النظام الإسلامي، وإذا أردنا معرفة سر الانتصار السريع للمسلمين في المدينة فإنّ علينا أن نطالع دروس مكّة المؤثرة.

وعلى أي حال فإنّ هذه السورة تضم عدّة أقسام مهمّة:

1 - تتطرق السورة إلى مسألة الدعوة إلى توحيد الله، توحيده في الخلق، توحيده في الربوبية، توحيده في العبودية، كما تسلط الضوء على مسألة الإخلاص في العبادة لله، وآيات هذه السورة في هذا المجال مؤثرة جدّاً بحيث تجذب قلب الإنسان وتدفعه نحو الإخلاص.

2 - الأمر المهم الآخر الذي تكرر في عدّة آيات في هذه السورة من بدايتها وحتى نهايتها، هو مسألة (المعاد) والمحكمة الإلهية الكبرى، ومسألة الثواب والعقاب، وغرف الجنّة، وكور النّار في جهنمّ، ومسألة الخوف والرهبة من يوم القيامة، وظهور نتائج الأعمال في ذلك اليوم، وتجسّدها في ذلك المشهد الكبير، إضافة إلى أنّها تستعرض

قضـية اسوداد أوجه الكاذبين والذين افتروا على الله الكذب، وسوق الكافرين صوب جهنم، وتعرض الكافرين لتوبيخ وملامة ملائكة العذاب ودعوة أهل الجنّة إلى دخول الجنّـة وتقديم ملائكة الرحمة التهاني والتبريـكات لهم، وهذه الأُمور التي تدور حول محور المعاد ممزوجة مع قضايا التوحيد بشكل كبير وكأنّها تشكل معها نسيجاً واحداً.

3 – قسـم آخر من السـورة يتناول أهمية القرآن المجيد، ورغم قلّة عدد آيات هذا القسم، فهو يجسّد بصورة لطيفة القرآن وتأثيره القوي على القلوب والأرواح.

4 – قسـم آخر أيضـاً يبيّن مصير الأقوام السـابقين والعذاب الإلهي الأليم الذي نزل بهم جراء تكذيبهم آيات الله الحقّ.

5 – وأخيراً قسم آخر من هذه السورة يتحدث عن مسألة التوبة، كون أبواب التوبة مفتوحة لمن يرغب في العودة إلى الله، وقد تضـمّن هذا القسـم أقوى آيات القرآن تأثيراً في مجال التوبة، ويمكن القول بأن آيات هذا القسـم تزف البشـرى وتحمل أخباراً سارّة قد لا يوجد مثيل لها في بقية آيات القرآن.

هذه السـورة معروفة باسم سورة (الزمر) وهذا الاسم مأخوذ من الآيتين (71) و(73) من هذه السورة، وتعرف أيضاً باسم سورة (الغرف) وهذا الاسم مأخوذ من الآية (20) إلاّ أن هذه التسمية غير مشهورة.

فضيلة سورة الزمر

لقد أولت الأحاديث الإسلامية أهمية كبيرة لتلاوة هذه السورة، وقد ورد حديث عن رسول الله(ص) يقول فيه: «من قرأ سورة الزّمر لم يقطع الله رجاه، وأعطاه ثواب الخائفين الذين خافوا الله تعالى»[1].

وورد في حديث آخر عن الإمام الصادق(ع) «من قرأ سورة الزمر أعطاه الله شرف الدنيا والآخرة، وأعزه بلا مال ولا عشيرة، حتى يهابه من يراه وحرّم جسده على النّار»[2].

مقارنة فضائل تلاوة سورة الزمر مع محتوياتها في مجال الخوف من الله، ورجاء رحمته، والإخلاص في العبودية، والتسليم المطلق لذات الله، يوضح أنّ هذه المكافآت إنّما تعطى لمن كانت تلاوته مقدمة للتفكر. والتفكر وسيلة للإيمان والعمل.

وبعبارة أُخرى: أن يتوغل محتوى السورة في أعماق روحه. ويتجلّى في كل مظاهر الحياة الاجتماعية والفردية. أجل فمثل هؤلاء الأفراد لائقون لهذا الثواب العظيم والرحمة الواسعة.

1. الألوسي في روح المعاني، المجلد 25، ص55، وقد ذكر احتمالات أُخرى إلاّ أنّنا لم نذكرها لعدم أهميتها.
2. (تنزيل الكتاب) خبر لمبتدأ محذوف والتقدير «هذا تنزيل الكتاب»، واحتمل بعض المفسّرين أن «تنزيل الكتاب» مبتدأ و«من الله» خبر. لكن الرأي الأوّل أصحّ، و«تنزيل» مصدر بمعنى المفعول. فتكون إضافته إلى الكتاب من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، والمعنى (هذا الكتاب منزل من الله).

الآيـــــــــــات 1 - 3

تَنزِيلُ الْكِتبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(1) إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَبَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ(2) أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلى اللَّهِ زُلْفى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ(3)

التّفسير

عليك بالإخلاص في الدين!

هذه السورة تبدأ بآيتين تتحدثان عن نزول القرآن المجيد: الأولى تقول: إن الله هو الذي أنزل القرآن، والثانية: تبيّن محتوى وأهداف القرآن.

في البداية تقول: (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)[1].

من الطبيعي أنّ كلّ كتاب تتمّ معرفته من خلال مؤلفه أو منزله، وعندما ندرك أنّ هذا الكتاب السماوي الكبير مستلهم من علم الله القادر والحكيم، الذي لا يقف أمام قدرته المطلقة شيء، ولا يخفى على علمه المطلق أمر، لأيقنّا بلا عناء أن محتوياته حقّ وكلّها حكمة ونور وهداية.

مثل هذه العبارات عندما ترد في بدايات سور القرآن، ترشد المؤمنين إلى هذه الحقيقة، وهي أن كلّ ما هو موجود في القرآن المجيد هو كلام الله وليس بكلام

1. روح المعاني، المجلد 23، الصفحة 212 ذيل آيات البحث.

الرّسـول (ص)، رغـم أن كلامه (صـ) بليغ وحكيم أيضـاً. ثم تنتقل السـورة إلى عرض محتويات هذا الكتاب السماوي وأهدافه (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق).

لا يوجد فيه غير الحقّ، ولهذا السـبب يتبعه طلاب الحقّ، والباحثون عن الحقيقة مشـغولون بالبحـث في محتوياته. من هنـا، ولكون هدف نزول القـرآن يتحدد في إعطاء الدين الخالص للبشرية، فإنّ آخر الآية: (فاعبد الله مخلصاً له الدين).

قـد يكون المراد هنا من كلمة (دين) هو عبـادة الله، لأنّ الجملة التي وردت قبلها (فاعبد الله) فيها أمر بالعبادة، ولذا فإنّ العبارة التي تليها (مخلصـاً له الدين) تبيّن أن شروط صحة العبادة تتمثل في الإخلاص وفي الشرك والرياء.

على كلّ حال فإنّ اتسـاع مفهوم (الدين) وعدم ذكر قيد أو شـرط له، يعطي معنى واسعاً، بحيث يشمل العبادات وبقية الأعمال إضافة إلى العقائد، وبعبارة أُخرى فإنّ (الدين) يتناول مجموعة شـؤون الحياة المادية والمعنوية للإنسان، ويجب على عباد الله المخلصـين أن يخلصـوا كلّ حياتهم لله وأن يطهروا قلوبهم وأرواحهم وسـاحة عملهم ودائرة حديثهم عن كل ما هو لغير اللّه، وأن يفكروا به ويعشقوه، وأن يتحدثوا عنه ويعملوا من أجله، وأن يسيروا دائماً في سبيل رضاه، وهذا هو (إخلاص الدين).

ولذا لا يوجد أيّ داع أو دليل واضح لتحديد مفهوم الآية في شهادة (لا إله إلا الله) أو بخصوص (العبادة والطاعة).

الآيـة التّاليـة تؤّكـد مرّة أُخـرى على مسـألة الإخلاصـ، وتقـول: (ألا لله الدين الخالص) وهذه العبارة ذات معنيين:

الأوّل: هو أنّ البارئ عزّ وجلّ لا يقبل سوى الدين الخالص، والاستسلام الكامل له من دون أيّ قيد أو شرط، ولا يقبل أي عمل فيه رياء أو شرك، أو خلط للقوانين الإلهية بغيرها من القوانين الوضعية.

والثّاني: هو أنّ الدين والشريعة الخالصة يجب أخذها من الله فقط، لأن أفكار الإنسان ناقصة وممزوجة بالأخطاء والأوهام.

ولكن وفق ما جاء في ذيل الآية السابقة فإنّ المعنى الأوّل أنسب، لأن الذين يؤدون المطلوب منهم بإخلاص هم العباد، ولهذا فإنّ هذا الخلوص في الآية مورد بحثنا يجب أن يراعى من جانب أُولئك.

وهناك دليل آخر على هذا الكلام، وهو حديث ورد عن رسول الله(ص)، جاء فيه أن رجلا قال لرسول الله: يا رسول الله! إنّا نعطي أموالنا التماس الذكر، فهل لنا من أجر؟ فقال رسول الله(ص): لا، قال: يا رسول الله! إنّا نعطي التماس الأجر والذكر، فهل لنا أجر؟ فقال رسول الله(ص): «إن الله تعالى لا يقبل إلاّ من أخلص له، ثمّ تلا هذه الآية: (ألا لله الدين الخالص)»[2].

وعلى أي حال، فإنّ هذه الآية في الواقع استدلال للآية التي جاءت قبلها، فهناك تقول: (فاعبدالله مخلصاً له الدين) وهنا تقول: (ألا لله الدين الخالص).

2. من الواضح أنّ في الآية المذكورة أعلاه وقبل عبارة (ما نعبدهم) جملة تقديرها «ويقولون ما نعبدهم».

مسـألة الإخلاص تناولتها الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث الإسلامية، وبدء الجملـة التي مورد بحثنا بـ (ألا) التي تسـتعمل عـادة لجلب الانتباه، هو دليل آخر على أهمية هذا الموضوع.

ثـم تنتقل الآية إلى إبطال المنطق الواهي الضـعيف للمشـركين الذين تركوا طريق الخلاص، وضاعوا في طرق الشرك والانحراف: (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى، إنّ الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون)[3]، وهنا سيتّضـح للجميع فساد أفكارهم وأعمالهم وبطلان عقائدهم.. هذه الآية هي تهديد قاطع للمشـركين في أنّ البارئ عزّ وجلّ سـيحاكمهم في يـوم القيامة، اليوم الذي تنكشف فيه الالتباسات وتظهر فيه الحقائق، ليجزوا ويعاقبوا على ما ارتكبوه من الأعمال المحرّمة، إضافة إلى فضيحتهم أمام الجميع في ساحة المحشر.

منطق عبدة الأصنام واضح هنا، فأحد أسباب عبادة الأصنام هي أنّ مجموعة كانت تزعـم أنّ الله سـبحانه وتعالى أجلّ مـن أن يحيط به الإدراك الإنسـاني من عقل أو وهم أو حس، فهو منزّه عن أن يكون مورداً للعبادة مباشـرة، فلذا قالوا: من الواجب أن نتقرّب إليه بالتقرب إلى مقربيه من خلقه، وهم الذين فوض إليهم تدبير شـؤون العالم، فنتخذهم أرباباً من دون الله ثمّ آلهة نعبدهم ونتقرب إليهم ليشفعوا لنا عند الله ويقربونا إليه زلفى، وهؤلاء هم الملائكة والجن وقديسو البشر.

ولما أحسّـوا بأن ليس باستطاعتهم الوصول إلى أولئك المقدسين، بنوا تماثيل لهم،

3. تفسير الميزان، المجلد 17، الصفحة 247 مع بعض التغييرات.

وأخذوا يعبدونها، وهذه التماثيل هي نفسها الأصنام، ولأنّهم كانوا يزعمون أن لا فرق بين التماثيل وأُولئك المقدسين وأنّ لهما نوعاً من التوحّد،، لذا عمدوا إلى عبادة الأصنام واتخاذها آلهة لهم.

وبهذا الشكل فإنّ الأرباب في نظرهم، هم أُولئك الذين خلقهم الله وقربهم إلى نفسه، وفوض إليهم تدبير شؤون العالم حسب زعمهم، وكانوا يعتبرون البارئ عزّ وجلّ هو (رب الأرباب) وهو خالق عالم الوجود، ومن النادر أن يوجد من الوثنيين من يقول بأن هذه الأصنام المصنوعة من الحجر والخشب، أو حتى آلهتهم الوهمية -أي الملائكة والجن وأمثالهم-هي التي خلقت هذا الكون وأوجدته[4].

وبالطبع فإنّ هناك أسباباً أُخرى لعبادة الأصنام، ومنها أنّ الاحترام الفائق الذي يكنونه في بعض الأحيان للأنبياء والصالحين يتسبب في احترام حتى التمثال الذي ينحت أو يصنع لهم بعد وفاتهم، ومع مرور الزمن تأخذ هذه لتماثيل طابعاً استقلالياً، ويتبدل الاحترام إلى عبادة، ولهذا فإنّ الإسلام نهى بشدّة عن صنع التماثيل.

وقد ورد في كتب التأريخ أنّ عرب الجاهلية كانوا يكنون احتراما فائقاً للكعبة الشريفة ولأرض مكّة المكرّمة، ولهذا كانوا يأخذون معهم قطعة حجر صغيرة من تلك الأرض عندما يذهبون إلى مكان آخر، ويضفون عليها الاحترام والتقديس، ومن ثمّ يعمدون إلى عبادتها.

4. سورة ق، 16.

وما ورد في قصة (عمرو بن لحي) التي جاء فيها، أنّ عمراً في إحدى رحلاته إلى بلاد الشام شاهد بعض مشاهد عبدة الأصنام، وفي طريق عودته إلى الحجاز، اصطحب معه صنماً من بلاد الشام، ومنذ ذلك الحين بدأت عبادة الأصنام في الحجاز هذه القصّة لا تتعارض مع ما ذكرناه لأنّه يبيّن بعض جذور عبادة الأصنام، وهدف أهل الشام من عبادة الأصنام كان مأخوذاً من أحد تلك الأمور أو نظائرها.

عبادة الأصنام -بأي شكل كانت- ما هي إلاّ أوهام وخيالات لا صحة لها ترشحت من أفكار ضعيفة وعاجزة، حرفت الناس عن الطريق الرئيسي الأصيل لمعرفة الله.

والقرآن المجيد يؤكّد بصورة خاصّة على أنّ الإنسان يستطيع أن يتصل بالله من دون أي واسطة، وأن يتحدث معه ويناجيه ويطلب منه حاجته، ويطلب العفو والتّوبة، فكلّ هذه الأُمور من الله وتحت تسلط قدرته. وسورة الحمد توضّح هذه الحقيقة، لأنّ قراءة العباد المستمرة لهذه السورة في صلواتهم اليومية، تجعل العبد على اتصال مباشر مع البارئ، عزّ وجلّ، إذ إنّه يقرؤها ويطلب من الله -دون أي واسطة- حاجاته منه.

سبل الاستغفار والتوبة، وكذلك طلب العون من البارئ، عزّ وجلّ وما ورد في الأدعية المأثورة، كلها تبيّن أنّ الإسلام لا يرى وجود واسطة في هذا الأمر، وهذه هي حقيقة التوحيد. حتى أن مسألة الشفاعة والتوسل بأولياء الله مشروطة بإذن البارئ عزّ وجلّ وسماحه، وهذا تأكيد على مسألة التوحيد.

ويجب أن تكون العلاقة هكذا، لأنّ الله سبحانه وتعالى أقرب إلينا من أيّ شيء،

كمـا يقول بذلك القرآن: (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد)[5]، (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه)[6]. وبهذا الشـكل فالباري، عزّ وجلّ ليس ببعيد عنّا، ولسنا بعيدين عنه كي تكون هناك حاجة للوسـاطة بين الطرفين، إنّه أقرب إلينا من كلّ قريب، وموجود في مكان وفي أعماق قلوبنا.

وفقاً لهذا فإنّ عبادة الوسطاء من الملائكة والجنّ ونظائرهم، أو الأصنام الحجرية والخشـبية، عمل باطل لا صـحّة له، إضافة إلى أنّه يعدّ كفراً بنعمة اللّه، لأنّ الذي يهـب النعم أجدر بالعبادة من تلك الموجودات الميتة، أو المحتاجة إلى الآخرين من أعلى رأسها إلى أخمص قدمها. لذا يقول القرآن المجيد في نهاية الآية: (إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار). فلا يهديه إلى الطريق الصحيح في هذا العالم، ولا إلى الجنّـة في العالم الآخر، لأنّه أوصـد بكلتا يديه أبواب الهدايـة أمامه، ولأنّ البارئ عزّ وجلّ يبعث فيض هدايته إلى من يراه لائقاً ومستعداً لاستقبالها، ولا يبعثها إلى الذين تعمدوا قتل الاستعدادات الموجودة في قلوبهم وذاتهم.

ملاحظة

الفرق بين التنزيل والإنزال:

في الآية الأولى وردت عبارة (تنزيل الكتاب)، وفي الثانية عبارة (أنزلنا إليك الكتاب)، فما الفرق بين الإنزال والتنزيل؟ وما المراد من تباين العبارتين في هاتين الآيتين؟

5. سورة الأنفال، 24.
6. مفردات الراغب مادة (نزل) والفرق بين الإنزال والتنزيل في وصـف القرآن والملائكة، أن التنزيل يختص بالموضـع الذي يشير إليه إنزاله مفرقاً ومرّة بعد أُخرى والإنزال عام.

كتب اللغة تقول: إنّ كلمة (تنزيل) تعني نزول الشيء على عدّة دفعات، في حين أن كلمة (إنزال) لها معنى عام يشمل النّزول التدريجي والنّزول دفعة واحدة[7].

قال بعضهم إنّ لكل منهما معنى خاصاً بها وأن (تنزيل) تعني -فقط- النّزول على عدّة دفعات، و(إنزال) تعني -فقط- النّزول دفعة واحدة[8].

اختلاف العبارتين المذكورتين أعلاه إنّما يعود إلى أن القرآن المجيد نزل بصورتين:

الأُولى: نزل دفعة واحدة على قلب النّبي محمّد (ص) في ليلة القدر في شهر رمضان المبارك كما ورد في الآيات المباركة: (إنا أنزلناه في ليلة القدر)[9] و(إنا أنزلناه في ليلة مباركة)[10] و(شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن)[11].

وفي كلّ هذه الآيات استخدمت عبارة (الإنزال) التي تشير إلى نزوله دفعة واحدة.

ويوجد نزول آخر تمّ بصورة تدريجية استغرقت (23) عاماً، أي طوال فترة نبوّة الرّسول الأكرم (ص) إذ كانت تنزل في كلّ حادثة وقضية آية تناسبها، وتنتقل بالمسلمين من مرحلة إلى أُخرى ليرتقوا سلم الكمال المعنوي والأخلاقي والعقائدي

7. هذا الاختلاف ورد في التّفسير الكبير للفخر الرازي نقلا عن آخرين.
8. القدر، 1.
9. سورة الدخان، 3.
10. سورة البقرة، 185.
11. هناك بحث مفصل عن فوائد النّزول التدريجي للقرآن تعرضنا له لدى تفسير الآية (34) من سورة الفرقان.

والاجتماعي، كما ورد في الآية (106) من سورة الإسراء: (وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا).

والذي يثير الانتباه، هو أنّ الكلمتين (تنزيل) و(إنزال) تأتيان أحياناً في آية واحدة للتعبير عن مقصودين، كما ورد في الآية (20) من سورة محمّد: (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت).

فكأن المسلمين يطلبون أحياناً نزول السورة القرآنية تدريجاً كي يهضموا محتوياتها بصورة جيدة، لكن الضرورة كانت تستدعي في بعض الحالات نزول السورة دفعة واحدة، وخاصة السور التي تتناول مسائل الجهاد في سبيل الله، لأنّ نزولها التدريجي قد يؤدي إلى سوء استغلالها من قبل المنافقين الذين كانوا يتحينون الفرص لبث سمومهم. ففي مثل هذه الحالات -كما ذكرنا- كانت السورة تنزل دفعة واحدة. وهذا آخر شيء يمكن ذكره بشأن التباين الموجود بين العبارتين، وطبقاً لهذا فإنّ آيات بحثنا أشارت إلى طريقتي النّزول بصورة جامعة كاملة.

ومع هذا فإنّه توجد هناك بعض الأُمور الاستثنائية لتفسير وبيان الاختلاف المذكور أعلاه، كما ورد في الآية (32) من سورة الفرقان: (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا). بالطبع، لكل من (التنزيل) و(الإنزال) فوائد وآثار خاصّة به، سنتطرق إليها في مواضعها[12].

12. سورة فاطر، 13.

الآيتـــــــــــان 4 - 5

لَّـوْ أَرَادَ اللّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاَّصْـطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَـآءُ سُـبْحَنَهُ هُـوَ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(4) خَلَقَ السَّـمَوَاتَ وَ الاَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ الَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لاَجَل مُّسَمًّى أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّرُ(5)

التّفسير

ما حاجة الله إلى الأولاد؟

المشـركون إضـافة إلى أنّهم يعتبرون الأصنام وسيطاً وشـفيعاً لهم عند الله، كما استعرضـت ذلـك الآيات السـابقة، فقـد اعتقدوا -أيضـاً- أن بعض المخلوقات -كالملائكـة- هـي بنـات الله، والآيـة الأولى في بحثنـا تجيب على هـذا الاعتقاد الخاطئ والتصـور القبيح بالقول: (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى ممّا يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار).

ذكر المفسرون آراء مختلفة في تفسير هذه الآية:

قـال البعض: يقصـد منها لـو أنّ الله كان راغباً في انتخاب ولد لـه، فلِمَ ينتخب البنـات اللاتـي تزعمون أنّهـنّ لا قيمة لهنّ؟ فلـم لا ينتخب له أبنـاء؟ وهذا -في الحقيقـة- نوع مـن أنواع الاسـتدلال وفـق ذهنية الطـرف المقابل كـي يفهم أن كلامه لا أساس له من الصحة.

وقال آخر: إنّما يقصـد منها لو أنّ الله كان راغباً في انتخاب ولد له، لكان قد خلق موجودات اُخرى أفضل وأرفى من الملائكة.

وبالنظر إلى كون مكانة الأنثى لا تقلّ عن مكانة الذكر عند البارئ عزّ وجلّ، وبالنظر إلى كـون الملائكة أو عيسـى ع -والذين اعتبرهم بعض المنحرفـين أبناء الله- من الموجودات الشريفة والمحترمة، فإنّه لا يعدّ أيّ من التّفسيرين السابقين مناسباً.

والأفضـل هو القـول بأنّ الآية تريد القـول: إنّ الابن مطلوب إمّـا لتقديم العون أو لمؤانسـة الـروح، وبفرض المحال فإنّ الله عزّ وجلّ لـو كان محتاجاً لمثل هذا الأمر، لاصطفى لهذا بعضاً ممّن يشاء من أشرف خلقه، فلم يتخذ ولداً؟

ولكن لكونه الواحد الذي لا نظير له والقاهر والغالب لكل شيء والأزلي والأبدي، فإنّه لا يحتاج إلى مسـاعدة أيّ أحد، ولا يسـتوحش من وحدانيتـه حتى يزيلها عن طريق الأُنس مع الآخرين، لهذا فهو منزّه ومقدّس عن الولد، حقيقياً كان أو منتخباً.

وإضـافة إلى مـا ذكرناه من قبل، فـإنّ أُولئك الجهلة الذين يتصـورون أحياناً أن الملائكـة هم أبناء الله، وأحياناً أُخرى يقولون بوجود نسـبة بـين الباري، عزّ وجلّ والجن، وأحياناً يقولون بأن (المسـيح) أو (العزير) هم أبناء الله، يجهلون الكثير من الحقائق الواضحة، فإن كان قصدهم هو الولد الحقيقي:

فأولاً: يجب أن يكون الباري تعالى جسماً.

ثانياً: التركيب من أجزاء (لأنّ الوالد جزء من الأب ينفصل عن وجود أبيه).

ثالثاً: حتمية وجود شبيه ونظير له (لأنّ الأولاد على الدوام يشبهون الآباء).

رابعاً: احتياجه لزوجة، والله منزّه ومقدّس عن كلّ تلك الأُمور.

وإن كان المقصود هو الولد المنتخب أي (المتبنّى) فإن ذلك إنّما يتمّ لأجل احتياجه لمساعدة جسدية أو لمؤانسة روحية، والله القادر القاهر لا يحتاج إلى كلّ هذه الأمور. وبهذا فإنّ وصفه بـ (الواحد) و(القهار) هو جواب مختصر على كلّ تلك الاحتمالات.

على أي حال، فإنّ عبارة (لو) التي تستخدم عادة للشرط المستحيل إشارة إلى أن هذا الفرض محال في أن ينتخب البارئ عزّ وجلّ ولداً له، وبفرض المحال أنّه يحتاج، فإنّه غير محتاج لما يقولونه من اتخاد الولد، بل إن مخلوقاته المنتخبة هي التي تؤمن هذا الأمر. ولإثبات حقيقة أنّ الله لا يحتاج إلى مخلوقاته، ولبيان دلائل توحيده وعظمته، يقول البارئ عزّ وجلّ: (خلق السموات والأرض بالحق).

كون تلك الأُمور حقّاً دليلا على وجود هدف كبير من وراء خلقها، وذلك لتكامل المخلوقات وفي مقدمتها الإنسان، ثمّ لا تنتهي عند البعث.

بعد عرض هذا الخلق الكبير، تشير الآية إلى جوانب من تدبيره العجيب، والتغيرات التي تطرأ بحسابات دقيقة، والأَنظمة الدقيقة أيضاً التي تحكم أُولئك، إذ يقول القرآن المجيد: (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل).

ما أجملها من عبارة! فلو وقف الإنسان في منطقة تقع خارج نطاق الكرة الأرضية، ونظر إلى مشهد حركة الأرض حول نفسها وتكون الليل والنهار اللذين يطوقان سطحها المكور، لشاهد -بصورة منتظمة- أن سواد الليل يستولي على طرف النهار من جهة ومن الجهة المقابلة يرى بأن ضوء النهار يستولي محركة مستمرة على ظلام الليل.

«يكور» من (تكوير) وتعني الشـيء المتكور أو المنحني، ويعتبر أصحاب اللغة تكوير العمامـة على الرأس نموذجاً للتكوير، وهذا التعبير القرآني الجميل يكشـف عن بعض الأسـرار، لكن الكثير من المفسّـرين نتيجة عدم التفاتهم إلى كروية الأرض ذكروا مواضيع أُخرى لا تناسب مفهوم كلمة (التكوير)، فمن هذه الآية يتجلّى لنا أن الأرض كروية وتدور حول نفسها، ومن جراء هذا الدوران، يطّوق الأرض دائماً شـريطان، أحدهما سـواد الليل، والثّاني بياض النهار، ولا يبقى هذان الشريطان ثابتين، وإنّما يغطي الشـريط الأسـود الأبيض من جهة والشـريط الأبيض يغطي الأسود من جهة أُخرى، أثناء حركة الأرض حول نفسها.

وعلى أي حال، فإنّ القرآن المجيد يبيّن ظاهرة الليل والنهار و(النور) و(الظلمات) في عدّة آيات مختلفة، كلّ واحدة منها تشـير إلى نقطة معينة، وتنظر إلى هذه الظاهرة من زاوية خاصة، فأحياناً يقول: (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل)[1].

الحديـث -هنـا- يتطرق لتوغّل الليـل في النهار وتوغـل النهار في الليـل التي تتمّ بصورة بطيئة وهادئة.

وأحيانـاً أُخرى يقول: (يغشـى الليـل النهار)[2]، وهنا تمّ تشـبيه الليل بسـتائر مظلمة تنزل على ضياء النهار وتحجبه.

1. سورة الأعراف، 54.
2. في قوله تعالى: (ثم جعل منها زوجها) محذوف تقديره (خلقكم من نفس واحدة خلقها، ثمّ جعل منها زوجها).

ثـمّ تنتقـل إلى جانب آخـر، ألا وهو التدبير والنظام الدقيق المسـير لشـؤون هذا العالم، قال تعالى: (و سخر الشمس والقمر كلّ يجري لأجل مسمى).

فلا يظهر في حركة الشمس التي تدور حول نفسها، أو التي تتحرك مع بقية كواكب المجموعة الشمسية نحو نقطة خاصّة في مجرة درب التبانة أدنى خلل، فهي تتحرك وفـق نظام خاص ودقيق جدّاً، ولا يظهر أي خلل في حركة القمر أثناء دورانه حول الأرض أو حول نفسـه، فالكلّ يخضع لقوانين (الخالق) ويتحرك وفقها، وسيستمر في التحرك وفق هذه القوانين حتى آخر يوم من أجله.

ويوجـد احتمـال آخـر، وهو أنّ المراد من تسـخير الشـمس والقمر هو تسـخيرها للإنسـان بـإذن الله، كمـا ورد في الآية (33) من سـورة إبراهيم: (وسـخر لكم الشـمس والقمر دائبين). ولكن بالالتفات إلى الجملة السـابقة واللاحقة في هذه الآيـة مورد البحث، إضـافة إلى عـدم ورود كلمة (لكم) في الآية، يجعل التّفسـير المذكور أعلاه مستبعداً بعض الشيء.

نهاية الآية كانت بمثابة تهديد وترغيب للمشـركين إذ تقول: (ألا هو العزيز الغفار) فبحكم عزّته وقدرته المطلقة لا يمكن لأيّ مذنب ومشرك أن يهرب من قبضة عذابه، وبمقتضى كونه الغفّار، فإنّه يستر عيوب وذنوب التائبين، ويظللهم بظلّ رحمته.

«غفار» صـيغة مبالغة مشتقّة من المصدر (غفران) وتعني في الأصل لبس الإنسان لشـيء يقيه من التلوّث، وعندما تستخدم بشأن الباري، عزّ وجلّ فإنّها تعني ستره لعيـوب وذنوب عباده النادمين وحفظهم من عذابـه وجزائه، نعم فهو (غفار) في أوج عزتـه وقدرته، وهو (قهار) في أوج رحمتـه وغفرانه، والهدف من ذكر هاتين الصـفتين في آخر الآية، هو إيجاد حالة من «الخوف» و«الرجاء» عند العباد، وهما عاملان رئيسان وراء كلّ تحرك نحو الكمال.

الآيتـــــــــــان 6 - 7

خَلَقَكُـم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَة ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ أَنْـزَلَ لَكُمْ مِّنَ الْأَنْعَـمِ ثَمَنِيَةَ أَزْوَاج يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـتِكُمْ خَلْقاً مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـتٍ ثَلَـثٍ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْـرَفُونَ(6) إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللّهَ غَنِىٌّ عَنْكُمْ وَلاَ يَرْضَـى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَ إِن تَشْـكُرُوا يَرْضَـهُ لَكُمْ وَلاَ تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ثُـمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ(7)

التّفسير

الجميع مخلوقون من نفس واحدة:

مرّة أُخرى تسـتعرض آيات القرآن الكريم عظمـة خلق الله، وتبيّن في نفس الوقت بعض النعـم الأُخرى التي منّ بها الله سـبحانه وتعالى على الإنسـان. في البداية تتحدّث عن خلق الإنسان وتقول: (خلقكم من نفس واحدة ثمّ جعل منها زوجها).

خلق كلّ بني آدم من نفس واحدة إشـارة إلى مسـألة خلق آدم أبي البشـر، إذ إنّ كل البشـر وبتنوع خلقتهم وأخلاقهم وطبائعهم واستعداداتهم وأذواقهم المختلفة يعودون في الأصل إلى آدم(ع).

وعبـارة: (ثمّ جعـل منها زوجها)[1] إشـارة إلى أن الله خلـق آدم في البداية، ثمّ خلق حواء ممّا تبقى من طينته.

1. تفسير الميزان؛ وروح المعاني ذيل آيات البحث.

وعلى هذا الأساس فإنّ عملية خلق حواء تمّت بعد خلق آدم، وقبل خلق أبناء آدم.

عبارة (ثمّ) لا تأتي دائماً كتأخير للزمان، وإنّما تأتي أحياناً كتأخير للبيان، فمثلا يقـال: رأيت ما عملته اليوم ثمّ رأيت ما عملته بالأمس، في حين أنّ عمل الأمس قد تم قبل عمل اليوم، ولكن المراد هنا أنّ مشاهدته تمّت بعد عمل اليوم.

والبعض اعتبر الآية المذكورة أعلاه تشير إلى (عالم الذّر) وخلق أبناء آدم بعد خلق آدم وقبل خلق حواء بشكل أرواح، هذا التّفسير غير صحيح، وقد بيّنا هذا في تفسير وتوضيح «عالم الذّر» في ذيل الآية (172) من سورة الأعراف.

وممّا يجدر ذكره أنّ زوجة آدم (ع) لم تخلق من أي جزء منه، وإنّما خلقت ممّا تبقى من طينته التي خلق منها، وذلك كما ورد في الرّوايات الإسلامية، وأمّا الرّوايات التي تقول بأنّها خلقت من ضلع آدم الأيسر، فإنّه كلام خاطئ مأخوذ من بعض الرّوايات الإسرائيلية، ومطابق في نفس الوقت لما جاء في الفصل الثّاني من كتاب التّوراة (سفر التكوين) المحرّف، إضافة إلى كونه مخالفاً للواقع والعقل، إذ إنّ تلك الرّوايات ذكرت أنّ أحد أضلاع آدم قد أخذ وخلقت منه حواء، ولهذا فإنّ الرجال ينقصهم ضلع في جانبهم الأيسر، في حين أنّنا نعلم بعدم وجود أيّ فارق بين عدد أضلع المرأة والرجل، وهذا الاختلاف ليس أكثر من خرافة.

بعد هذا ينتقل الحديث إلى مسألة خلق أربعة أنواع من الأنعام تؤمّن للإنسان ضروريات الحياة، حيث يستفيد من جلودها لملابسه، ومن حليبها ولحمه لغذائه،

ومن جهة أُخرى يصنع من جلودها وأصوافها عدّة أُمور يستفيد منها في حياته، ومن جهة ثالثة يستخدمها كوسيلة لتنقّله وحمل أثقاله: (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) والمقصود من (الأزواج الثمانية) الذكر والأنثى لكلّ من الإبل والبقر والضأن والمعز، ومن هنا فإنّ كلمة (زوج) تطلق على كلّ من الذكر والأنثى، ولهذا فإنّ عدده يكون ثمانية أزواج. (ولذا في بداية الآية هذه أُطلقت كلمة زوج على حواء).

وعبارة (أنزل لكم) والتي تخص هنا الأنعام الأربعة -كما بيّنا ذلك من قبل- لا تعني فقط إنزال الشيء من كان عال، وإنّما في مثل هذه الحالات تعني (تدني المقام) والنعم من مقام أعلى إلى أدنى.

كما ذكروا احتمالا آخر في أن (إنزال) مشتقّة هنا من (نزل) على وزن (رسل) وتعني ضيافة الضيف، أو أوّل ما يقدم للضيف، ونظير هذا المعنى ورد في الآية (198) من سورة آل عمران بخصوص أهل الجنّة، قال تعالى: (خالدين فيها نزلا من عند الله).

وقد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ الأنعام الأربعة مع أنّها لم تنزل من مكان أعلى إلى الأرض، فأنّ مقدّمات توفير متطلبات حياتها وتربيتها والتي هي قطرات المطر وأشعة الشمس هي التي تنزل من الأعلى إلى الأرض.

وورد تفسير رابع لهذه العبارة هو أنّ كلّ الموجودات كانت من البداية موجودة في خزائن علم وقدرة البارئ عزّوجلّ، أي في علم الغيب، ثمّ انتقلت من الغيب إلى

الشـهادة أي إلى (الظهور)، ولهذا أطلقوا على هذا الانتقال عبارة (الإنزال) كما ورد ذلك في الآية (21) في سـورة الحجر: (وإن من شـيء إلاّ عندنا خزائنه وما ننزله إلاّ بقدر معلوم)[2].

لكنّ التّفسـير الأوّل أكثر مناسـبة من غيره، رغم عدم وجود أي تعارض بين هذه التفاسير، بل من الممكن أن تصب جميعها في نفس المفهوم والمعنى.

وورد عـن أمـير المؤمنين(ع) حديث في تفسـير هذه الآية جاء فيـه: «إنزاله ذلك خلقه إياه» أي أن إنزال تلك الأزواج الثمانية من الأنعام يعني خلقها من قبل الله.

ظاهر الحديث يشير إلى التّفسير الأوّل، لأنّ الله سبحانه وتعالى هو خالق الخلق، ولـه المقام الأسـمى والأرفـع. وعلى أي حال، فرغـم أنّ الأنعام المذكـورة قليلا ما يستفاد منها اليوم في عمليات النقل وحمل الأثقال، لكنّها تقوم بمنافع مهمّة اُخرى يزداد ويتسع حجم الاحتياج إليها يوماً بعد آخر، لأنّها تغطي اليوم الجانب الأعظم من احتياجات الإنسـان الغذائية كالحليب واللحوم، إضافة إلى أصوافها وجلودها التي كانت منذ السـابق وحتى يومنا هذا تسـتخدم في صناعة الألبسة وغيرها من الأُمـور التـي يحتاج إليها الإنسـان، حتى أنّ أحـد المنابع المالية المهمّـة بيد الدول الكبيرة في العالم يأتي عن طريق تربيه وتكثير هذه الحيوانات.

ثـمّ تتطرق الآيـات إلى حلقة اُخرى من حلقات خلـق الله، وهي عملية نمو الجنين إذ تقول الآية: (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث).

2. دعاء عرفة، مصباح الزائر، ابن طاووس.

يتضح أنّ المقصود من (خلقاً من بعد خلق) هو الخلق المتكرر والمستمر، وليس الخلق مرتين فقط.

«يخلقكم»: فعل مضارع يعطي معنى الاستمرارية، وهو هنا بمثابة إشارة قصيرة ذات معان عميقة إلى التحولات العجيبة والصور المختلفة التي تطرأ على الجنين في مراحل وجوده المختلفة في بطن الأُم. وطبقاً لأقوال علماء علم الأجنّة فإنّ عملية خلق ونمو الجنين في بطن الأُمّ تعدّ من أعجب وأدقّ صور خلق البارئ عزّ وجلّ، ونادراً ما نلاحظ أنّ المطلعين على دقائق هذه القضايا لا تلهج ألسنتهم بحمد الخالق وثنائه.

وقوله (ظلمات ثلاث) إشارة إلى ظلمة بطن الأمّ وظلمة الرحم وظلمة المشيمة (الكيس الخاص الذي يستقر فيه الجنين) التي هي في الحقيقة ثلاثة أغلفة سميكة تغطي الجنين، فالمصورون -الآن- بحاجة إلى ضوء ساطع ونور من أجل التصوير، أمّا خالق الإنسان فيخطط في تلك الظلمة بشكل عجيب ويصور بشكل يدهش العقول، ويمدّه بأسباب العيش في مكان لا يمكن لأحد أن يوصل إليه رزقه الذي هو في أمسّ الحاجة إليه للنمو.

الإمام الحسين(ع) سيد الشهداء يقول في دعائه المعروف بدعاء عرفة، الذي يعدّ دورة دراسية كاملة وعالية في التوحيد، يقول عند استعراضه للنعم التي منّ بها الباري عزّ وجلّ عليه: «وابتدعت خلقي من مني يمنى، ثمّ أسكنتني في ظلمات ثلاث: بين لحم وجلد ودم لم تشهدني خلقي، ولم تجعل إليّ من أمري ثمّ أخرجتني إلى الدنيا تامّاً سويّاً»[3].

3. نلفت الانتباه إلى أن (أنّى) تأتي أحياناً بمعنى (أين) وأحياناً أُخرى بمعنى(كيف).

(ممّـا يذكر أنّنا قد تطرقنا إلى عجائب خلـق الجنين ومراحل خلقه في ذيل الآية (السادسة) من سورة آل عمران وفي ذيل الآية (الخامسة) من سورة الحج).

وفي نهايـة الآية، بعـد ذكر الحلقـات التوحيدية الثلاث الخاصـة بخلق الإنسـان والأنعام ومراحل خلق الجنين، يقول البارئ عزّ وجلّ: (ذلكم الله ربّكم له الملك لا إله إلاّ هو فأنى تصرفون).

فأحياناً يصـل الإنسـان بعد مشـاهدته لهذه الآثار التوحيديـة العظيمة إلى مقام الشهود. ثمّ أشار تعالى إلى ذاته القدسية، حيث يقول: (ذلكم الله ربّكم) حقّاً لو كانت هناك عين بصيرة فيمكنها أن تراه أنّه وراء هذه الآثار... فعين الجسم ترى الآثار، وعين القلب ترى خالق الآثار.

عبارتي «ربّكم» و«له الملك» تدلان في الحقيقة على حصـر الربوبية بذاته الطاهرة المقدسـة، والذي اتضـح بصـورة جيدة في عبارة (لا إله إلا هو) فعندما يكون هو الخالق والمالك والمربي والحاكم لكلّ عالم الوجود، فما هو دور غيره في هذا العالم كي يستحق العبودية؟!

وهنا تصـرخ الآية بوجه مجموعة من النائمين والغافلين قائلة: (فأنى تصرفون) أي كيف ضللتم وانحرفتم عن سبيل التوحيد[4]؟

بعـد ذكر هذه النعم الكبرة التـي منّ بها البارئ عزّ وجلّ على عباده، تتطرق الآية

4. وفق القراءات المشهورة، فإن (يرضه) تقرأ بضم الهاء وبدون إشباع الضمير، لأنّها كانت في الأصل (يرضاه) وقد أسقطت الألف بسبب الجزم وأصبحت (يرضه) والضمير فيها يعود على الشكر. ورغم أن كلمة (شكر) لم ترد من العبارة السابقة بصورة صريحة، إلاّ أن عبارة (إن تشكروا) تدل عليها، كما هو الحال بالنسبة إلى الضمير في (اعدلوا هو أقرب للتقوى) الذي يعود على العدالة.

التالية إلى مسـألة الشـكر والكفر، وتناقش جوانب من هذه المسـألة. وفي البداية تقول: (إن تكفروا فإنّ الله غني عنكم) أي إن تكفروا أو تشـكروا فإنّ نتائجه تعود عليكم، والله غني عنكم في حال كفركم وشكركم.

ثمّ تضـيف، إنّ غناه وعدم احتياجه لا يمنعان من أن تشكروا وتتجنبوا الكفر، لأنّ التكليف إنّما هو لطف ونعمة إلهية، نعم، قال تعالى: (ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم)[5].

وبعد اسـتعراض هاتين النقطتين تسـتعرض الآية نقطة ثالثة وهي تحمل شـخص مسؤولية أعماله، لأن قضية التكليف لا يكتمل معناها بدون هذا الأمر، قال تعالى: (ولا تزر وازرةٌ وزر أُخرى).

ولأنّه لا معنى للتكليف إن لم يكن هناك عقاب وثواب، فالآية تشير في المرحلة الرّابعة إلى قضية المعاد، وتقول: (ثمّ إلى ربّكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون).

ولكـون مسـألة الحسـاب والعقاب لا يمكـن أن تتمّ ما لم يكن هنـاك اطلاع وعلم كاملين بالأسرار الخفية للإنسان، تختتم الآية بالقول: (إنه عليم بذات الصدور).

بهذا الشـكل، ومن خلال جمل قصار، استعرضت فلسـفة التكليف وخصوصياته ومسـؤولية الإنسان ومسـألة العقاب والجزاء والثواب. وهذه الآية جواب قاطع لمن يتولى المذهب الجبري، الذي انتشـر -ممّا يؤسـف له- في صفوف بعض الطوائف

5. هناك بحث مفصل في ذيل الآية (5) من سورة إبراهيم. عن أهمية وفلسفة الشكر وعن مفهومها الحقيقي وأبعادها.

الإسلامية، لأنّ الآيات الكريمة تقول وبصراحة: (ولا يرضى لعباده الكفر).

وهذا دليل واضح على أن إرادة الكفر لم تفرض على الكافرين (كما يقول بذلك أتباع المذهب الجبري) لأنّ من البديهي أنّ من لا يرتضي شيئاً لا يأتي به، فهل يمكن أنّ تكون إرادة الله منفصلة عن رضاه؟ متعصبو المذهب الجبري يثيرون العجب عندما يعمدون إلى ستر هذه العبارة الواضحة من خلال حصر كلمة (العباد) بالمؤمنين أو المعصومين، في حين أنّها كلمة ذات معنى مطلق وتشمل بصورة واضحة كلّ العباد، نعم، فالباري، عزّ وجلّ لا يرتضي الكفر لأحد من عباده، مثلما يرتضي الشكر لكلّ عباده من دون أي استثناء[6].

وهذه النقطة تلفت الانتباه، وهي أنّ أساس تحمّل كلّ إنسان لمسؤولية أعماله يعدّ من الأسس المنطقية والمسلم بها في كلّ الأديان السماوية[7].

وبالطبع يمكن أحياناً أن يكون الإنسان مشتركاً في ذنوب الآخرين، وذلك عندما يكون مضطلعاً أو مساهما مع آخرين في تهيئة مقدمات أو أسس ذلك العمل، كالذين يبتدعون البدع أو السنن الضالة، في هذه الحالة تكون ذنوب أي شخص يرتكب تلك المحرمات في ذمة مسببها الرئيسي دون أن تقلل ذنوب ذلك الشخص الذي ارتكب الذنب[8].

6. بهذا الخصوص هناك بحث في ذيل الآية (15) من سورة الإسراء.
7. هناك بحث بهذا الشأن في ذيل الآية (14) من سورة الأنعام.
8. هناك اختلاف بين المفسّرين حول المعنى الذي تعطيه(ما) في عبارة (نسي ما كان يدعو إليه) البعض يعتقد أن (ما) موصولة تشير إلى (ضر) ولكون هذا المعنى هو الأنسب، فقد قدم على المعاني الأخرى، وقال البعض أيضاً: إن (ما) موصولة والمراد منها هو الله سبحانه وتعالى: ومجموعة أخرى قالت: إن (ما) مصدرية وتعني الدعاء، وإمعان النظر في الآية (12) من سورة يونس: (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسّه) يبيّن أن هذه الآية شاهد على صحة المعنى الأوّل.

الآيتـــــــــــان 8 - 9

وَ إذا مَسَّ الاِنْسَـــنَ ضُـــرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُواْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَ جَعَلَ للّهِ أَنْدَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـبِ النَّارِ(8) أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَآءَ الَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الاٰخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الاٌّلْبَـبِ(9)

التّفسير

هل العلماء والجهلة متساوون؟

الآيات السـابقة تحدثت بالأدلة والبراهين عن توحيد ومعرفة البارئ عزّ وجلّ، وذلك مـن خـلال عرض بعض الظواهر العظيمـة له في الآفـاق والأنفس، أمـا آيات بحثنا فتتحـدث في البدايـة عن التوحيد الفطري وتوضـح أن ما يدركه الإنسـان عن طريق العقـل أو الفهم أو المطالعة في شـؤون الخلق موجود بصـورة فطريـة في أعماقه، وأنّه يظهر أثناء المشـاكل وأعاصـير الحوادث التي تعصـف به، ولكن هذا الإنسان الكثير النسيان يبتلى مرّة اُخرى بالغفلة والغرور فور ما تهدأ العواصف والمشاكل وتقول الآية الكريمة: (وإذا مسّ الإنسان ضر دعا ربّه منيباً إليه) ونادماً من ذنوبه وغفلته.

وعندما يمنّ الله على الإنسان بالنعم ينسى المشاكل والابتلاءات السابقة التي دعا الله عزّ وجلّ من أجل كشفها عنه، قال تعالى: (ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل)[1].

1. يراجع (لسان العرب) و(مفردات الراغب) وتفسير (روح المعاني).

إذ يجعل لله أنداداً وشركاء ويعمد إلى عبادتها، ولا يكتفي بعبادتها بل يعمد -أيضاً- لإضلال وحرف الناس عن سبيل الله: (وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله).

المقصود هنا من (الإنسان) هم الناس العاديون الذين لم يتربّوا في ظل إشعاعات أنوار تعاليم الأنبياء، ولا يشمل هذا الكلام المؤمنين الذين يذكرون الله في السراء والضراء ويطلبون العون من لطفه دائماً.

المراد من (ضر) هنا كلّ أذى أو محنة أو ضرر يصيب الجسم أو الروح.

«خولناه»: من مادة (خول) على وزن (عمل) وتعني المراقبة المستمرة لشيء ما، المراقبة والتوجّه الخاص يستلزم العطاء والبذل، فقد استخدمت هنا بمعنى الهبة.

وقال البعض: إنّ (خول) على وزن (عمل) وتعني الخادم، ولهذا فإنّ كلمة «خوله» تعني الخادم الذين وهب لصاحبه، ثمّ استعملت في كل أشكال هبة النعم بالتخويل.

والبعض الآخر قال: إنّها تعني الفخر والتباهي، ولهذا فإنّ العبارة المذكورة أعلاه تعني حصول الإنسان على الفخر عن طريق منحه وهبته النعم[2].

وبصورة عامة فإنّ هذه الجملة تعكس إضافة إلى العطاء والهبة، اهتمام البارئ عزّ وجلّ الخاصّ بعبده.

عبارة (منيباً إليه) تبيّن أنّ الإنسان في الحالات الصعبة يضع كل ستائر غروره وغفلته جانباً، ويترك وراءه كلّ ما كان يعبده أو يتمسك به من دون الله، ويعود

2. في هذه العبارة شق محذوف، والتقدير (أهذا الذي ذكرنا خير أمن هو قانت آناء الليل).

إلى الباري، عزّ وجلّ، ويستشفّ من مفهوم (الإنابة) هذه الحقيقة وهي أن مبدأ الانسان ومقصده وغايته هو الله تعالى.

«أنداد»: جمع (ند) على وزن (ضد) وتعني الشبيه والمثيل، مع وجود بعض الاختلاف وهو أنّ (مثل) لها مفهوم واسع، ولكن (ند) لها معنى واحد، وهو المماثلة في الذات والجوهر. عبارة (جعل) تبيّن أن تصورات وخيالات الإنسان تصنع مثيلا وشبيهاً لله، الأمر الذي لا يمكن أن ينطبق مع الواقع.

وعبارة (ليضل عن سبيله) تبيّن أن الضالين المغرورين لا يقتنعون بإضلال أنفسهم، وإنّما يعمدون لجر الآخرين إلى وادي الضلال.

وعلى أي حال، فإنّ آيات القرآن المجيد أشارت -مرّات عديدة- إلى العلاقة الموجودة بين (التوحيد الفطري) و(الحوادث الصعبة في الحياة) كما عكست اضطراب الإنسان المغرور الذي يلجأ إلى الله ويوحده بإخلاص فور ما تعصف به العواصف والأعاصير، وكيف أنّه ينسى الله ويعود إلى غروره ولجاجته فور هدوء العاصفة ليسير من جديد في طريق الشرك والضلال.

وما أكثر أمثال هؤلاء الأشخاص المتلونين، وما أقل من ينقلب ويتغير عندما يمنّ البارئ عزّ وجلّ عليه بالنصر والنعم والاستقرار.

نعم، فأبسط نسمة هواء تمرّ على حوض ماء تجعل مياه مضطربة، أمّا المحيط

الهادي فإنّه لا يتأثر أبداً بأشدّ الأعاصير ولذا سمّي المحيط الهادي.

نهاية الآية تخاطب مثل أُولئك الأشخاص بلغة ملؤها التهديد الصريح والحازم والقاطع: (قل تمتع بكفرك قليلا إنّك من أصحاب النّار).

فهل يمكن أن يكون لإنسان كهذا مصير أفضل من هذا؟!

الآية التالية استخدمت أُسلوب المقارنة، الأُسلوب الذي طالما استخدمه القرآن المجيد لإفهام الآخرين القضايا المختلفة، حيث تقول: هل أن مثل هذا الشخص إنسان لائق وذو قيمة: (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه)[3].

أين ذلك الإنسان المشرك والغافل والمتلون والضالّ والمضلّ من هذا الإنسان ذي القلب اليقظ الطاهر الساطع بالنور، الذي يسجد لله في جوف الليل والناس نيام، ويدعو ربّه خائفاً راجياً؟!

فهؤلاء في حال النعمة لا يعدون أنفسهم في مأمن من العقاب والعذاب، وفي حال البلاء لا ييأسون من رحمته، وهذان العاملان يرافقان وجودهم أثناء حركتهم المستمرة بحذر واحتياط نحو معشوقهم.

«قانت» من مادة «قنوت» بمعنى ملازمة الطاعة المقرونة بالخشوع والخضوع.

«آناء» هي جمع (انا) -على وزن كذا- وتعني ساعة أو مقداراً من الوقت.

3. علل الشرائع؛ والكافي نقلا عن نور الثقلين، المجلد 4، الصفحة 479.

التأكيد هنا على ساعات الليل، لأنّ تلك الساعات يحضر فيها القلب أكثر، وتقلّ نسبة تلوثه بالرياء أكثر من أيّ وقت آخر.

قدمت الآية السجود على القيام، وذلك لكون السجود من أعلى درجات العبادة، وإطلاق الرحمة وعدم تقيّدها بالآخرة دليل على سعة الرحمة الإلهية التي تشمل الحياة الدنيا والآخرة.

وفي حديث ورد في كتاب «علل الشرائع» وفي كتاب «الكافي» نقلا عن الإمام الباقر(ع)، إنّه فسّر هذه الآية: (أمن هو قانت آناء الليل) بأنّها صلاة الليل[4].

من الواضح أن هذا التّفسير يشبه الكثير من التفاسير الأُخرى التي بيّنت في ذيل آيات مختلفة في القرآن الكريم من قبيل ذكر مصاديقها الواضحة، ولا ينحصر مفهوم الآية بصلاة الليل.

وتتمة الآية تخاطب الرّسول الأكرم(ص) بالقول: (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون). كلا، إنّهم غير متساوين: (إنّما يتذكر أولو الألباب).

لا شك في أن السؤال المذكور أعلاه سؤال شامل، وأنّه يقارن ما بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، أي بين العلماء والجهلة، لأنّه قبل طرح هذا السؤال، كان هناك سؤال آخر قد طرح، وهو: هل يستوي المشركون والمؤمنون الذين يحيون الليل

4. الكافي، المجلد الأوّل، باب صفة العلم وفضله الحديث (7).

بالعبادة، فالسـؤال الثّاني يشـير أكثر إلى هذه المسـألة وهو: هل أن الذين يعلمون بأن المشـركين المعاندين لا يتسـاوون مع المؤمنين الطاهرين، يتساوون مع الذين لا يعلمون بهذه الحقيقة الواضحة؟

وعلـى أي حال فهذه العبارة التي تبدأ باسـتفهام اسـتنكاري، توضـح أحد شـعارات الإسلام الأساسية وهو سمو وعلو منزلة العلم والعلماء في مقابل الجهل والجهلة. ولأنّ عدم التسـاوي -هذا- ذكر بصورة مطلقة، فمن البديهي أن تكون هاتان المجموعتان غير متسـاويتين عنـد البارئ، عزّ وجلّ، وغير متسـاويين في وجهة نظـر العقلاء، ولا يقفون في صفّ واحد من الدنيا، ولا في الآخرة وأنّهم مختلفون ظاهراً وباطناً.

ملاحظة

تتضمّن هاتين الآيتين إشارات لطيفة إلى نقاط مهمّة:

1 - **في الآية الأولى**، ذكرت فلسـفة الحوادث المرّة والصـعبة، وانكشـاف ستائر الغـرور والغفلة عن عين القلب، وصـيرورة شـعاع الإيمان شـعلة وهّاجة، والعودة والإنابـة إلى لله سـبحانه وتعـالى، وأجابـت الآيـة في نفـس الوقت أُولئـك الذين يتصورون أنّ وجود مثل تلك الحوادث الصعبة في الحياة إنّما هي نقص في مسألة نظام الخلق وفي عدالة البارئ عزّوجلّ.

2 - **الآيـة الثّانيـة** تبدأ بالدعوة إلى العمل وبنـاء الذات وتنتهي بالعلم والمعرفة، لأنّ من لم يبن ذاته، لا تشع أنوار المعرفة من قلبه، حيث لا يمكن أصلا فصل العلم عن بناء الذات.

3 – قوله تعالى: (قانت آناء الليل) وردت هنا بصيغة اسم فاعل، وكلمة (الليل) جاءت مطلقة لتشير إلى استمرار عبودية وخضوع أُولئك لله سبحانه، لأنّ العمل إذا لم يستمر فيكون ضعيف جدّاً.

4 – إنّ العلم الاضطراري المتولّد من نزول البلاء والذي يربط الإنسان بخالقه، لا يكون مصداقاً حقيقياً للعلم إلاّ إذا استمر إلى ما بعد هدوء العاصفة. لذا فإنّ الآيات المذكورة أعلاه تجعل الإنسان الذي يستيقظ حال نزول البلاء ويعود إلى غفلته عند زواله تجعله في عداد الجهلة. إذن فإنّ العلماء الحقيقيين هم المتوجهون إليه تعالى في كلّ الحالات.

5 – ممّا يلفت الانتباه أنّ نهاية الآية الأخيرة تقول: إنّ الفرق بين الجاهل والعالم لا يدركه سوى أولي الألباب! لأنّ الجاهل لا يدرك قيمة العلم! وفي الحقيقة إنّ كلّ مرحلة من مراحل العلم هي مقدمة لمرحلة أُخرى.

6 – العلم في هذه الآية وبقية الآيات لا يعني معرفة مجموعة من المصطلحات، أو العلاقة المادية بين الأشياء، وإنّما يقصد به المعرفة الخاصة التي تدعو الإنسان إلى (القنوت) أي إلى طاعة البارئ عزّ وجلّ والخوف من محكمته وعدم اليأس من رحمته، هذه هي حقيقة العلم، وإن كانت العلوم الدنيوية تؤدي إلى ما ذكرناه آنفا، فهي علم أيضاً. وإلاّ فهي سبب الغفلة والظلم والغرور والفساد في الارض، ولا يحصل منها سوى «القيل والقال» وليس «الكيفية والحال».

7 – على عكس ما يعتقد به الجهلة الذين يعدّون الذين مخدراً (أفيوناً)، فإنّ أهم ما يدعو إليه الأنبياء هو طلب العلم والمعرفة، وقد أعلنوا عداءهم للجهل أينما كان،

وإضـافة إلى أنّ القرآن الحكيم اسـتغل الكثير من المناسـبات كي يوضح هذا الأمر، كما وردت في الروايات الإسلامية أحاديث تصور عدم وجود شيء أفضل من العلم.

فقد ورد في حديث عن رسول الله (ص): «لا خير في العيش إلاّ لرجلين: عالم مطاع، أو مستمع واع»[5]. كما ورد حديث آخر عن الإمام الصادق ع، جاء فيه: «إنّ العلماء ورثـة الأنبيـاء وذاك أنّ الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا دينـاراً، وإنّما أورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشـيء منها فقد أخذ حظـاً وافراً، فانظروا علمكم هذا عمـن تأخذونه فإن فينا أهل البيـت في كلّ خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»[6].

8 – الآية الأخيرة تتحدث عن ثلاث مجموعات، هم العلماء والجهلة وأولو الألباب، وقد شخصهم الإمام الصادق(ع) في حديث له، عندما قال: «نحن الذين يعلمون، وعدوّنا الذين لا يعلمون، وشيعتنا أولوا الألباب»[7].

9 – ورد في الحديـث خـرج أمير المؤمنين(ع) ذات ليلة من مسـجد الكوفة متوجّهاً إلى داره وقد مضـى ربع من اللّيل ومعه كميـل بن زياد (رحمه الله) وكان من خيار شـيعته ومحبّيه فوصـل في الطّريق إلى باب رجل يتلو القرآن في ذلك الوقت ويقرأ قولـه تعالى (أَمَّنَ هُوَ قَانِتٌ أناءَ اللَّيْلِ... الآية) بصـوت شـجي حزين فاستحسـن كميل ذلك في باطنه وأعجبه حال الرّجل من غير أن يقول شـيئا، فالتفت صـلوات الله عليـه إليه وقال: يـا كميل لا يعجبك طنطنة الرّجل إنّه من أهل النّار سـأنبئك بعد، فيما يصـدر فتحيّر كميل مكاشفة له على ما في باطنه ولشهادته بدخول النّار

5. الكافي، المجلد الأوّل، باب صفة العلم وفضله الحديث(2).
6. تفسير مجمع البيان ذيل آيات البحث.
7. سفينة البحار، المجلد الثّاني، الصفحة 496 أحوال كميل.

مع كونه في هذا الأمر وتلك الحالة الحسنة ومضى مدّة متطاولة إلى أن آل حال الخوارج إلى ما آل وقاتلهم أمير المؤمنين(ع) وكانوا يحفظون القرآن كما أنزل، فالتفت أمير المؤمنين(ع) إلى كميل وهو واقف بين يديه والسيف في يده يقطر دماً ورؤوس أُولئك الكفرة الفجرة مجلقة على الأرض فوضع رأس السيف على رأس من تلك الرؤوس وقال: يا كميل أمّن هو قانتٌ...

الآية أي هو ذلك الشخص الذي كان يقرأ القرآن في تلك الليلة فأعجبك حاله قبّل كيمل قدميه(ع) واستغفر اللّه.[8].

8. من البديهي أنّ الخطاب بعبارة «يا عبادي» هو من الله، وإن كان المخاطب هو رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فالمقصود هنا أن أبلغهم خطابي.

الآيـــــــــــات 10 - 16

قُلْ يَعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِـعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّـبِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ(10) قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصـاً لَّهُ الدِّينَ(11) وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْـلِمِينَ(12) قُـلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(13) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِى(14) فَاعْبُدُواْ مَا شِـئْتُمْ مِّنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَسِـرِينَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنْفُسَـهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَـمَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْـرَانُ الْمُبِينُ(15) لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَعِبَادِ فَاتَّقُونِ(16)

التّفسير

الخطوط الرئيسة لمناهج العباد المخلصين:

تتمة لما جاء في بحث الآيات السابقة التي قارنت بين المشركين المغرورين والمؤمنين المطيعين لله، وبين العلماء والجهلة، فإنّ آيات بحثنا هذا تبحث الخطوط الرئيسية لمناهج عباد الله الحقيقيين المخلصين وذلك ضمن سبعة مناهج وردت في عدّة آيات تبدأ بكلمة (قل).

الآية الأولي تحثّ النّبي(ص) على التقوى: (قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم)[1].

1. أغلب المفسّرين اعتبروا عبارة (في هذه الدنيا) تعود على عبارة (أحسنوا)، واستناداً لهذا فإن «حسنة» مطلقة تشمل كل حسنة في الدنيا والآخرة، ومع انتباه إلى أن استعمال التنوين في مثل هذه الموارد إنّما هو لإعطاء الكلمة طابع التفخيم والعظمة، فإنه يفيد بيان عظمة الثواب.

نعـم، فالتقـوى هي الحاجـز الذي يصـدّ الإنسـان عن الذنـوب، وتجعلـه يحسّ بالمسـؤولية وبتكاليفـه أمام البارئ، عزّوجلّ، هي المنهـج الأوّل لعباد الله المؤمنين والمخلصـين، فالتقوى هي الدرع الذي يقي الإنسـان من النّار، والعامل الرئيسـي الذي يردعه عن الانحراف، فالتقوى هي ذخيرته الكبيرة في سـوق القيامة، وهي ميزان شخصية وكرامة الإنسان عند البارئ عزّوجلّ.

المنهج الثّاني يختص بالإنسـان والعمل الصالح في هذه الدنيا التي هي دار العمل، وقد شـجعت الآية الناس وحثتهم على عمل الإحسـان، من خلال بيان نتيجة ذلك العمل: (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة)[2].

نعم فالإحسـان بصـورة مطلقة في هذه الدنيا -سـواء كان في الحديث، أو في العمل، أو في نوع التفكر والتفكير بالأصـدقاء والغربـاء- يؤدّي إلى نيل ثواب عظيم في الدنيا والآخرة، لأنّ جزاء الإحسان هو الإحسان. وفي الواقع فإنّ التقوى عامل ردع، والإحسان عامل صلاح، وكلاهما يشمل (ترك الذنب) و(أداء الفرائض والمستحبات).

المنهـج الثّالث يدعو إلى الهجرة من مواطن الشـرك والكفر الملوثة بالذنوب، قال تعالى: (وأرض الله واسعة).

هـذه الآيـة -في الحقيقـة- ردّ علـى ذوي الإرادة الضـعيفة والمتذرعـين بمختلف الذرائـع الذين يقولون: إنّنا عاجزون عـن أداء الأحكام الإلهية لأنّنا في أرض مكّة

2. النساء، 97.

التــي يحكمها المشــركون، والقرآن يردّ عليهم بأن أرض الله لا تقتصــر على مكّة، فـإن لم تتمكنوا من أداء فرائضــكم في مكّة فالمدينة موجــودة، بل إن الأرض كلها لله، هاجروا من المواطن الملوثة بالشرك والكفر والظلم التي لا يمكنكم فيها أداء الأحكام الإلهية بحرية إلى آخر.

مسألة الهجرة هي إحدى أهم المسائل التي لم تلعب دوراً أساسياً في صدر الإسلام بانتصار الحكومة الإسلامية فحسب، بل إنّ لها أهمية في كلّ زمان، لأنّها من جهة تمنع مجموعة من المؤمنين أن يستسلموا لضغط وكبت محيطهم، ومن جهة أُخرى تكون عاملا مساعداً لتصدير الإسلام إلى نقاط مختلفة في أنحاء العالم.

والقــرآن المجيد يقول: (إنّ الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفســهم قالوا فيم كنتم قالــوا كنّا مستضــعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واســعة فتهاجروا فيها فأُولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً)[3].

وهذا يوضح -بصورة جيدة- أنّ المؤمن الذي تحيط به الضغوط والكبت، ويستطيع أن يهاجر في سبيل الله عليه أن يهاجر، وإلاّ فإنّه غير معذور أمام الله.

(بشأن أهمية الهجرة في الإسلام وأبعادها المختلفة كانت لنا بحوث مختلفة ومفصلة في ذيل الآية(100) من سورة النساء، وفي ذيل الآية(72) من سورة الانفال).

3. «بغير حساب» من الممكن أن تكون متعلقة بـ (يوفى)، أوأنّها (حال) لـ (أجرهم) لكن الإحتمال الأوّل أنسب.

ولأنّ الهجرة ترافقها بصورة طبيعية مشكلات كثيرة في مختلف جوانب الحياة، فالمنهج الرابع إذن يتعلق بالصبر والاستقامة، قال تعالى: (إنّما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)[4].

وعبارة (يوفى) مشتقّة من (وفى) وتعني إعطاءه حقّه تاماً كاملا. وعبارة (بغير حساب) تبيّن أن للصابرين أفضل الأَجر والثواب عند الله، ولا يوجد عمل آخر يبلغ ثوابه حجم ثواب الصبر والاستقامة.

والشاهد على هذا القول ما جاء في الحديث المعروف الذي رواه الإمام الصادق(ع) عن رسول الله(ص) والذي جاء فيه: «إذا نشرت الدواوين ونصبت الموازين لم ينصب لأهل البلاء ميزان، ولم ينشر لهم ديوان، ثمّ تلا هذه الآية: (إنّما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)»[5].

والبعض يعتقد أنّ هذه الآية تخصّ الهجرة الأولى للمسلمين، أي هجرة مجموعة كبيرة من المسلمين إلى أرض الحبشة تحت قيادة جعفر بن أبي طالب(ع)، وكما قلنا مراراً رغم أنّ أسباب النّزول توضح مفهوم الآية، إلاّ أنّها لا تحددها.

أمّا المنهج الخامس فقد ورد فيه أمر الإخلاص والتوحيد الخالي من شوائب الشرك، وهنا تتغير لهجة الكلام بعض الشيء، ويتحدث الرّسول الأكرم(ص) عن وظائفه ومسؤولياته، إذ يقول: (قل إنّي أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين).

4. تفسير مجمع البيان ذيل آيات البحث، ونفس المعنى مع اختلاف بسيط ورد في تفسير القرطبي نقلا عن الإمام الحسين بن علي(عليهما السلام) عن جدّه رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم).
5. تقديم (اسم الجلالة) والذي هو مفعول (اعبد) يفيد الحصر هنا، وقوله (مخلصاً له ديني) التي هي حال يؤكّد معنى الحصر.

ثم يضيف: (وأمرت لأن أكون أوّل المسلمين). وهذا هو المنهج السادس الذي يعترف بأنّ النّبي الأكرم(ص) هو أول الناس إسلاماً وتسليماً لأوامر البارئ عزَّ وجلّ.

أمّا المنهج السابع والأخير فيتناول مسألة الخوف من عقاب البارئ عزّ وجلّ يوم القيامة، قال تعالى: (قل إنّي أخاف إن عصيت ربّي عذاب يوم عظيم).

التأمل في هذه الآيات يكشف بوضوح عن أنّ رسول الله(ص) هو عبد من عباد الله، وهو مكلف أيضاً بعبادة الله بإخلاص، لأنّه -هو أيضاً- يخاف العذاب الإلهي، وهو مكلّف بإطاعة الأوامر الإلهية، كما أنّه مكلّف بتكاليف وواجبات أثقل وأعظم من تكاليف الآخرين، ولذا يجب أن يكون أفضل وأسمى من الأُخرين.

إنّه لم يدّع الألوهية أبداً، ولم يخط خطوة واحدة خارج مسير العبودية، بل إنّه يفتخر ويتباهى بهذا المقام، ولهذا السبب كان قدوة وأسوة، وهو (صلّى الله عليه وآله وسّلم) لم يفضّل نفسه على الآخرين، وهذا دليل على عظمته وأحقّيته، فهو ليس كالمدّعين الكذّابين الذين كانوا يدعون الناس إلى عبادتهم، ويعتبرون أنفسهم أرقى من البشر، وأنّهم من معدن ثمين أفضل من الناس، وأحياناً يدعون أتباعهم إلى التبرع سنوياً بالذهب والجواهر بقدر وزنهم.

إنّه يقول: إنّي لست مثل السلاطين المتجبرين على رقاب الناس الذين يكلفون الناس ببعض التكاليف ويعتبرون أنفسهم «فوق تلك التكاليف» وهذا في الواقع إشارة إلى موضوع تربوي هامّ، وهو أنّ كلّ إنسان -مربياً كان أم قائداً- عليه أن يكون السباق في تنفيذ من أجلها ما يمليه عليه نهجه، فيجب أن يكون أوّل مؤمن

بشـريعته أو سنته وأكثر الساعين والمضـحين كي يؤمن الناس بصدقه، ويتخذونه أسـوة وقدوة لهم في كلّ الأمور. ومن هنا يتضـح أن رسـول الله(ص) لم يكن أوّل مسلم من حيث الزمان وحسب، وإنّما كان أوّل إسلاماً من كلّ النواحي، من ناحية الإيمان والإخلاص، والعمل، والتضـحية، والجهاد، والصـمود، والمقاومة، وتأريخ حياة الرّسول الأكرم(ص) يؤيد هذه الحقيقة بصورة جيدة.

بعـد اسـتعراض المناهج السـبعة المذكورة في الآيـات أعلاه (التقوى، الإحسـان، الهجرة، الصبر، الإخلاص، التسليم، الخوف).

ولكون مسـألة الإخلاص لها ميزات خاصـة في مقابل العلل المختلفة للشرك، تعود الآيـات لتؤّكد عليهـا مرّة اُخرى، إذ تقول وبنفس اللهجة السـابقة: (قل الله أعبد مخلصا له ديني)[6].

أما أنتم فاعبدوا ما شئتم من دون الله: (فاعبدوا ما شئتم من دونه).

ثمّ تضـيف: (قل إنّ الخاسـرين الذين خسـروا أنفسـهم وأهليهم يوم القيامة). أي إنّهم لم يستثمروا طاقاتهم وعمرهم، ولا من عوائلهم وأولادهم لإنقاذهم، ولا لإعادة ماء الوجه المراق إليهم، وهذا هو الخسران العظيم: (ألا ذلك هو الخسران المبين).

الآية الأخيرة في بحثنا هذا تصف إحدى صور الخسران المبين، إذ تقول: (لهم من فوقهم ظلل من النّار ومن تحتهم ظلل).

6. مفردات الراغب مادة (خسر).

وبهذا الشكل فإنّ أعمدة النيران تحيط بهم من كلّ جانب، فهل هناك أعظم من هذا؟ وهل هناك عذاب أشدّ من هذا؟

«ظلل» جمع (ظلّة) على وزن «سنّة» وتعني الستر الذي ينصب في الجهة العليا. وطبقاً لهذا فإنّ إطلاق هذه الكلمة على ما يفرش تحت أهل النّار إطلاق مجازي ومن باب التوسع في معنى الكلمة.

بعض المفسّرين قالوا: بما أنّ أصحاب النّار يتقلبون بين طبقات جهنم، فإنّ ستائر النّار محيط بهم من فوق رؤوسهم ومن تحت أرجلهم. والآية (55) من سورة العنكبوت تشبه هذه الآية: (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون).

هذا في الحقيقة تجسيد لأحوالهم وأوضاعهم في هذه الدنيا، إذ إن الجهل والكفر والظلم محيط بكلّ وجودهم، ومستحوذ عليهم من كلّ جانب، ثمّ تضيف الآية مؤكّدة وواعظة إياهم: (ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون). إضافة كلمة (العباد) إلى لفظ الجلالة في هذه الآية، ولعدّة مرّات اشارة إلى أنّ تهديد البارئ عزّ وجلّ لعباده بالعذاب إنّما هو لطف ورحمة منه، وذلك كي لا يبتلى عباده بمثل هذا المصير المشؤوم، ومن هنا يتضح أنّه لا حاجة لتفسير كلمة (العباد) هنا على أنّها تخصّ المؤمنين، فهي تشمل الجميع، كي لا يأمن أحد من العذاب الإلهي.

ملاحظات

1 - حقيقة الخسران!

يرى الراغب في مفرداته أنّ الخسران يعني ذهاب رأس المال كلّه أو بعضه، وأحياناً تنسب إلى الإنسان، عندما يقال: (الشخص الفلاني خسر) وأحياناً تنسب إلى العمل عندما يقولون: (خسرت تجارته).

وتستخدم كلمة (خسران) أحياناً في حالة فقدان الثروة الظاهرية، كالمال والجاه، الدنيوي، وأحياناً أُخرى تستخدم في حالة فقدان ثروة معنوية كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب، وهذا هو الشيء الذي سمّاه البارئ عزّ وجلّ (الخسران المبين) فكلّ خسران ذكره البارئ عزّوجلّ في القرآن الكريم إنّما يشير إلى المعنى الثّاني وليس إلى الخسران الخاص بثروات الدنيا وتجارتها[7].

وقد شبّه القرآن الإنسان بتجارة الأثرياء الذين يدخلون أسواق التجارة العالمية برؤوس أموال كبيرة، فالبعض منهم يجني أرباحاً كبيرة، والبعض الآخر يخسر خسارة فادحة.

7. بعض المفسّرين، ومنهم الزمخشري صاحب الكشّاف يعتقدون أنّ أصل كلمة (طاغوت) هو (طغوت) على وزن (فعلوت) (كملكوت)، ثمّ تقدت لام الفعل على عين الفعل وأصبحت (طوغوت)، وبعد إبدال الواو بالألف أصبحت (طاغوت) ويستدل صاحب الكشّاف على هذا الكلام من عدّة مصادر (تفسير الكشاف ج 4 ص 120).

آيات كثيرة في القرآن المجيد تطرقت إلى مثل هذا التعبير والتشبيه، حيث توضح الحقيقة التالية: إنّ النجاة من العذاب الإلهي لا تتحقق بالجلوس وانتظار هذا وذاك، وإن السبيل الوحيد للنجاة هو الاستفادة من الثروة، وبذل الجهود والمساعي في هذه التجارة الكبيرة، لأنّ كلّ شيء يعطى بثمن، ولا يعطى بالمعاذير! وقد يتساءل البعض: ما هي أسباب وصف خسارة المشركين والمذنبين بالخسران المبين؟

الجواب هو:

أوّلا: لأنّهم باعوا أفضل ثروة لديهم -أي العمر والعقل والإدراك والعواطف الانسانية- بدون مقابل.

ثانياً: لو أنّهم باعوا تلك الثروة من دون أن يشتروا العذاب والعقاب لكان أمراً هيناً بعض الشيء، لكنّ الأمر لم يكن كذلك إذ أنّهم بخسرانهم لتلك الثروة العظيمة هيأوا لأنفسهم عذاباً أليماً وعظيماً.

ثالثاً: إنّ هذه الخسارة التي لا يمكن أن تعوّض بأيّ ثمن، وهذه هي (الخسران المبين).

2ـ ما هو المراد من الآية: (فاعبدوا ما شئتم)

عبارة (فاعبدوا ما شئتم) جاءت بصيغة أمر تهديدي، وهذا الأُسلوب يستعمل عندما لا تؤثر النصيحة والموعظة بالشخص المجرم والمذنب، إذ أنّ آخر ما يقال له: (افعل ما تشاء، ولكن انتظر العقاب أيضاً) ويعني أنّك وصلت إلى درجة لا تستحقّ معها النصيحة والموعظة، وأنّ مصيرك وعلاجك هو العذاب الأليم.

3 - من هم الأهل؟

الآيـات المذكـورة أعـلاه تقول: إنّ أُولئك الخاسـرين لم يخسـروا ثـروة وجودهم فحسب، وإنّما خسروا أهليهم أيضاً. بعض المفسّرين قال: إنّ المراد من (أهل) هم أتباع الإنسـان والسائرون على نهجه. والبعض الآخر فسّرها بأنّها تعني الزوجات القاصـرات الطرف في الجنّة، اللواتي خسـرهن المشـركون والمجرمون. والبعض الآخر يقول: إنّها تعني العائلة والأقارب في الدنيا.

والمعنـى الأخير -مع الالتفـات إلى أنّه المعنى الأصـلي لهذه الكلمة- يعد أنسـب مـن الجميع، لأن الكافر يخسـر أهله يـوم القيامة، إذ ينفصـلون عنه وإن كانوا مؤمنين، وأما إذا كانوا مشـركين فمضـافاً إلى أنّهم لا ينفعونهم، سيكونون سبباً في زيادة العذاب الاليم.

الآيـــــــــــات 17 - 20

وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّـغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَ أَنَابُوا إِلى اللّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللّهُ وَأُوْلَـئِكَ هُمْ أُوْلُواْ الأَلْبَـبِ (18) أَفَمَنْ حَـقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَـنْ فِى النَّارِ (19) لَـكِنِ الَّذِيـنَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُـرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَـرُ وَعْدَ اللّهِ لاَ يُخْلِفُ اللّهُ الْمِيعَادَ (20)

التّفسير

عباد الله الحقيقيون:

اسـتخدم القرآن الكريم مرّة اُخرى أسـلوب المقارنة في هـذه الآيات، إذ قارن بين عباد الله الحقيقيين والمشـركين المعاندين الذين لا مصـير لهم سـوى نار جهنّم، قال تعالى: (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى).

ولكون كلمة (البشـرى) جاءت هنا بصورة مطلقة وغير محدودة، فتشمل كل أنواع البشـرى بالنعم الإلهية المادية والمعنوية، وهذه البشـرى بمعناها الواسـع تختص فقـط بالذين اجتنبـوا عبادة الطاغوت وعمـدوا إلى عبـادة الله وحده من خلال إيمانهم به وعملهم الصالح.

وكلمــة «طاغوت» من مادة (الطغيان) تعني الاعتــداء وتجاوز الحدود، ولذا فإنّها تطلق على كلّ متعدّ، وعلى كلّ معبود من دون الله، كالشــيطان والحكام المتجبرين (وتستعمل هذه الكلمة للمفرد والجمع)[1].

فعبارة (اجتنبوا الطاغوت) بمعناها الواســع تعني الابتعاد عن كلّ أشــكال الشرك وعبادة الأصــنام وهوى النفس والشــيطان، وتجنب الانصياع والاستسلام للحكام المتجبريــن الطغاة. أمّا عبــارة (أنابوا إلى الله) فإنّها تجمــع روح التقوى والزهد والإيمان، وأمثال هؤلاء يستحقون البشرى.

ويجــب الالتفــات إلى أنّ عبــادة الطاغوت لا تعني فقط الركوع والســجود له، وإنّما تشــمل كلّ طاعــة له، كما ورد في حديث عن الإمام الصــادق(ع) «من أطاع جباراً فقد عبده»[2].

ثم تعرج الآية على تعريف العباد الخاصّــين فتقول: (فبشــر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أُولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب)[3].

الآيتــان المذكورتان بمثابة شــعار إســلامي، وقد بيّنتا حرية الفكر عند المســلمين، وحرية الاختيار في مختلف الأُمور.

ففي البداية تقول (بشــر عباد) ثمّ تعرّج على تعريف أُولئك العباد المقربين بأنّهم

1. مجمع البيان، الجزء السابع، الصفحة 493، ذيل آية البحث.
2. (عباد) كانت في الأصل (عبادي) وقد حذفت الياء وعوض عنها بالكسرة.
3. في الحقيقة، إنّ الآية تحوي جملة محذوفة تدل عليها الجملة التي تلتها، تقديرها (أفأنت تخلصه) إذ يصبح تقدير الجملة كالتــالي (أفمــن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تخلصــه (بقرينة الجملة التالية) أفأنت تنقذ مــن في النّار) وقال البعض الآخر: إن تقدير الآية هو كالتالي (أفمن حقت عليه كلمة العذاب ينجو منه).

أُولئك الذين لا يستمعون لقول هذا وذاك ما لم يعرفوا خصائص وميزات المتكلم، والذيــن ينتخبون أفضــل الكلام من خلال قوّة العقل والإدراك، إذ لا تعصــب ولا لجاجــة في أعمالهــم، ولا تحديد وجمود في فكرهم وتفكيرهــم، إنّهم يبحثون عن الحقيقة وهم متعطشــون لها، فأينما وجدوها اســتقبلوها بصدور رحبة، ليشربوا من نبعها الصافي من دون أيّ حتى يرتووا.

إنّهم ليســوا طالبين للحق ومتعطشــين للكلام الحســن وحســب، بــل هم يختارون الأجود والأحسن من بين (الجيد) و(الأجود) و(الحسن) و(الأحسن)، وخلاصة الأمر فإنّهم يطمحون لنيل الأفضــل والأرفع، وهذه هي علامات المســلم الحقيقي المؤمن الساعي وراء الحق.

أمّا ما المقصــود من كلمــة (القول) في عبارة (يســتمعون القول) فإنّ المفسّــرين أعطوا عدّة آراء لتفسيرها، منها: البعض فسّره بأنّه يعني (القرآن) الذي يحتوي على الطاعات والمباحات، واقتفاء الأحسن يعني اقتفاء الطاعات.

والبعض الآخر فسّــرها بأنّها تعني مطلق الأوامر الإلهية المذكورة في القرآن وغير المذكــورة فيه. ولكن لم يتوفّــر أيّ دليل على هذين التّفســيرين، بل أن ظاهر الآية يشــتمل كلّ قول وحديث، فالمؤمنون هؤلاء يختــارون من جميع الكلمات والاحاديث ما هو (أحسن)، ليترجموه في أعمالهم.

والطريف في الأمر أنّ القرآن الكريم حصر في الآية المذكورة أعلاه الذين هداهم الله بأُولئك القوم الذين يســتمعون القول ويتبعون أحســنه، كما أنّه اعتبر العقلاء

ضمن هذه المجموعة، وهذه إشارة إلى أنّ أفراد هذه المجموعة مشمولون بالهداية الإلهيــة الظاهريــة، والباطنيــة، الهداية الظاهريــة عن طريق العقــل والإدراك، والهدايــة الباطنيــة عن طريــق النور الإلهــي والإمداد الغيبي، وهاتــان مفخرتان كبيرتان للباحثين وراء الحقيقة ذوي التفكير الحرّ.

ولكون رســول الله (ص) كان يرغب -بشــدّة- في هداية المشركين والضالين، وكان يتــألّم كثــيراً لانحراف أُولئــك الذين لم يعطوا آذاناً صــاغية للحقائــق، فإنّ الآية التاليــة عمــدت إلى مواســاته بعد أن وضــحت له حقيقــة أنّ عالمنا هــذا هو عالم الحريــة والامتحان، ومجموعة من الناس -في نهاية الأمر- يجب أن تدخل جهنم، إذ قالت: (أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النّار)[4].

عبــارة (حقت عليه كلمة العذاب) إشــارة إلى آيات مشــابهة، كالآية (85) من ســورة ص التي تقول بشــأن الشــياطين وأتباعهم: (لأمــلأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين).

ومــن البديهي أنّ حتمية تعذيب هذه المجموعة لا تحمل أيّ طابع إجباري، بل إنّهم يعذبــون بســبب الأعمال التــي ارتكبوها، ونتيجة إصــرارهم على ارتــكاب الظلم والذنب والفســاد، بشــكل يوضــح أنّ روح الإيمان والتعقل كانت ميّتة في أعماقهم، وأنّ وجودهــم كان قطعة من جهنم لا أكثر. مــن هنا يتبيّن أنّ قوله تعالى: (أفأنت تنقــذ مــن في النّار) هو إشــارة إلى حقيقة أنّ كونهم من أصــحاب النّار يعد أمراً

4. يقول «الزمخشري» في الكشاف: (وعد الله) منصوب لكونه مفعولا مطلقاً للتأكيد، ولأنّ عبارة (لهم غرف) تعني (وعدهم الله غرفاً).

مسـلماً بـه وكأنّهـم الآن هم في قلـب جهنم، حتّى أنّ رسـول الله (صـ) الذي هو (رحمة للعالمين) لا يستطيع إنقاذهم من العذاب، لأنّهم قطعوا كل طرق الاتصال بالله سبحانه وتعالى ولم يبقوا أيّ سبيل لنجاتهم.

ولبعث السـرور في قلب رسـول الله (ص) ولزيادة الأمل في قلوب المؤمنين، جاء في آخر الآية: (لكن الذين اتقوا ربّهم لهم غرف من فوقها غرف).

فإن كان أهل جهنم مسـتقرين في ظلل من النّار، كما ورد في الآية السـابقة: (لهم من فوقهم ظلل من النّار ومن تحتهم ظلل) فإنّ لأهل الجنّة غرفاً من فوقها غرف أُخرى، وقصور فوقها قصور أُخرى، لأنّ منظر الورود والماء والأنهار والبساتين من فـوق الغرف يبعث على اللذة والبهجة بشـكل أكثر. «غرف» جمع «غرفة» من مادة «غرف» وعلى وزن حرف بمعنى تناول الشيء ولذا يطلق على من يتناول الماء بكفه ليشربه «غرفة» ثمّ اطلقت على الطبقات العليا من المنازل.

وكشفت الآية أيضاً عن أن غرف أهل الجنّة الجميلة قد زينت بأنهار تجري من تحتها (تجري من تحتها الأنهار) نعم، هذا وعد الله (وعد الله لا يخلف الله الميعاد)[5].

5. سورة نوح، الآية 7.

بحوث

1 - منطق حرية التفكير في الإسلام

الكثير من المذاهب الوضعية تنصح أتباعها بعدم مطالعة ومناقشة مواضيع وآراء بقيــة المذاهــب، إذ أنّهم يخافــون من أن تكون حجّــة الأُخرين أقــوى من حجّتهم الضعيفة وبالتالي فقدان اتباعهم.

إلاّ أنّ الإســلام -شــاهدنا في الآيات المذكورة أعلاه- ينتهج سياسة الأبواب المفتوحة في هــذا المجال، إذ يعتبر المحققين هم عباد الله الحقيقيين الذين لا يرهبون ســماع أراء الأُخرين، ولا يستسلمون لشيء من دون أي قيد أو شرط، ولا يتقبلون كلّ وسواس.

الإســلام الحنيف يبشّــر الذين يســتمعون القول ويتبعون أحســنه، الذين لا يكتفون بترجيح الجيد على السيء، وإنّما ينتخبون الأحسن ثمّ الأحسن من كلّ قول ورأي.

ويوبّــخ -بشــدّة- الجهلة الذين يضــعون أصــابعهم في آذانهم ويستغشــون ثيابهم كلما ســمعوا صوت الحق، كما ورد في قول نوح(ص) عندما شكى قومه للبارئ عزّ وجلّ: (وإنّي كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصــابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً)[6].

وأساســاً فــإنّ المذهب القوي الذي يملك منطقاً قويــاً لا يرهب أقوال الآخرين، ولا يخاف من طرح آراء تلك المذاهب، لأنّه أقوى منها وهي التي ينبغي أن تخافه.

6. 1 الكافي، المجلد الأوّل، كتاب العقل الحديث (12).

هـذه الآية وضـعت -في نفس الوقت- الذين يتبعون أيّ قـول يقال لهم من دون أيّ تفكـير في مـدى صـدقه، وحتى أنّهـم لا يحققـون ولا يبحثون فيه بقـدر ما تبحث الأغنـام عـن الغـذاء الجيد في المراعي، وضـعتهم خارج صـف (أولـوا الألباب) والذين (هداهم الله). فهاتان الصـفتان تختصّـان بالذين لم يبتلوا الاستسـلام المفرط من دون أيّ قيد أو شرط، والذين لم يفرطوا في تعصبهم الجاهلي الأعمى.

2 - الردّ على بعض الأسئلة

من الممكن أن تطرح على ضوء البحث السابق عدّة أسئلة، منها:

1 - لماذا يمنع الإسلام بيع وشراء كتب الضلال.

2 - لماذا يحرم إعطاء القرآن الكريم بيد الكفار.

3 - كيف يمكن لإنسان ليس له إلمام بموضوع ما إن ينتخب ويميز الجيد من السي، ألا يستلزم هذا المعنى الدور؟

الجـواب على السـؤال الأوّل واضـح، لأنّ البحث المتعلّـق بالآيات المذكـورة أعلاه يتنـاول أقـوالا يؤمل منها الهداية، ففي أي وقت يتضـح بعد البحـث والتحقيق أن الكتاب الفلاني هو مضل فإنّه يخرج من هذا الأمر، فالإسلام لا يسمح بأن يسلك الناس في طريق ثبت انحرافه. وبالطبع فإنّه مادام الأمر لم يثبت لأحد، أي ما زال الشـخص في حالة التحقيق عن المذاهب الأُخرى لقبول الدين الصـحيح، لا بأس بمطالعـة كلّ تلـك الكتب، ولكن بعد ثبوت ذلك الأمر يجب اعتبارها مادّة سـامّة، ويجب إبعادها عن متناول الجميع.

أمّا بالنسبة إلى السؤال الثّاني، فإنّه لا يجوز إعطاء القرآن لغير المسلم إن كان ذلك الشخص يهدف إهانة وهتك القرآن، ولكن إن حصل علم بأن ذلك الكافر يفكر حقّاً بالتحقيق في الإسلام من خلال القرآن للوصول إلى هذا الهدف، فإن إعطاء القرآن هنا لا يعدّ أمراً ممنوعاً، بل يعدّ واجباً، والعلماء الذين حرّموا ذلك لا يقصدون هذا المعنى.

ولهذا فإنّ الجمعيات الإسلامية الكبيرة تصرّ بشدّة على ترجمة القرآن إلى بقية اللغات الحية في العالم، ليوضع تحت تصرف المتعطشين لمعرفة الحقيقة.

وأمّا بشأن السؤال الثّالث، فيجب الالتفات إلى أنّه في كثير من الأحيان لا يستطيع شخص ما إنجاز عمل ما، ولكن عندما ينجزه الآخرون يتمكن هو من تشخيص الجيد من الرديء في ذلك العمل.

وعلى سبيل المثال، من الممكن أن يوجد شخص لا إطلاق له بفنّ الإعمار والبناء حتى أنّه لا يستطيع وضع لبنتين فوق بعضهما البعض بصورة صحيحة، ولكنّه يستطيع تمييز البناء الجيد ذي الكيفية العالية من البناء السيء غير المتناسق، كما أنّ هناك أشخاصاً كثيرين ليسوا بشعراء، إلاّ أنّهم يتمكنون من تقييم أشعار شعراء كبار وتميزها عن الأشعار الفارغة التي ينظمها بعض ناظمي الشعر. هناك أشخاص ليسوا برياضيين ولكنّهم يتمكنون من التحكيم بين الرياضيين، وانتخاب الجيد منهم.

3 - نماذج من الروايات الإسلامية التي تؤكّد على حرية التفكير

وردت بعض الأحاديث الإسلامية في تفسير الآيات المذكورة أعلاه، كما وردت أحاديث مستقلة تؤكّد على هذا الموضوع، ومنها ما ورد عن الإمام موسى بن جعفر(ع)، خاطب فيه أحد أصحابه وهو هشام بن الحكم قائلا: «يا هشام، إن الله تبارك وتعالى بشر أهل العقل والفهم في كتابه، فقال (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)»[7].

وورد حديث آخر عن الأمام الصادق(ع) في تفسير الآية المذكورة أعلاه، قال فيه: «هو الرجل يسمع الحديث فيحدث به كما سمعه، لا يزيد فيه ولا ينقص»[8].

وبالطبع، فإنّ تفسير (فيتبعون أحسنه) هو المقصود في هذا الحديث، لأن إحدى علامات اتباع القول الحسن، هو أن لا يضيف الإنسان من عنده أي شيء على القول، وينقله ذاته للآخرين. ونقرأ في البلاغة في حقل الكلمات القصار لأمير المؤمنين(ع): (الحكمة ضالة المؤمن، فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق»[9].

4 - سبب النّزول

ذكر المفسّرون أسباباً لنزول هذه الآيات، ومنها، أنّ الآية: (والذين اجتنبوا الطاغوت...) والآية التي تلتها نزلنا بحق ثلاثة أشخاص (لم يستسلموا في

7. نور الثقلين، المجلد 4، الصفحة 486، الحديث 34.
8. نهج البلاغة، قصار الكلمات، الخطبة (80).
9. تفسير القرطبي؛ ومجمع البيان ذيل آيات البحث.

عهد الجاهلية لغوغاء المشـركين في مكّة) كانـو يقولون لا إله إلا الله، والثلاثة هم (سلمان الفارسي وأبوذر الغفاري وزيد بن عمرو)[10].

وقد ورد اسم (سعيد بن زيد) بدلا (زيد بن عمرو) في بعض الرّوايات[11].

والبعض الآخر قال: إنّ الآية: (أفمن حق عليه كلمة العذاب...) نزلت بشأن (أبي جهل) وأمثاله[12].

وغير مستبعد أن تكون هذه الرّوايات من قبيل تطبيق الآية على المصاديق الواضحة وليس أسباباً للنزول.

10. الدر المنثور نقلا عن تفسير الميزان، المجلد17، صفحة 267.
11. القول هذا أورده صاحب تفسير روح المعاني نقلا عن آخرين.
12. «ينابع» على ما هو المشـهور يكون منصـوباً بنزع الخافض، وهو جمع ينبوع من نبع الماء (راجع تفسير روح المعاني، ج23، ص256، روح البيان، ج8، ص93.

الآيتـــــــــــان 21 - 22

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّـمَآءِ مَآءِ فَسَـلَكَهُ يَنَـبِيعَ فِى الأَرْضِ ثُـمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفـاً أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْـفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَمَـاً إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِى الأَلْبَـبِ (21) أَفَمَنْ شَـرَحَ اللهُ صَـدْرَهُ لِلإِسْـلَـمِ فَهُوَ عَلَى نُور مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهِ أُوْلَـئِكَ فِى ظَلَل مُّبِين (22)

التّفسير

الذين هم على مركب من نور!!

في هـذه الآيات يسـتعرض القـرآن الكريم مرّة اُخـرى دلائل التوحيـد والمعاد، ليكمل البحوث التي تناولت مسـألة الكفر والإيمان الواردة في الآيات السابقة. إذ تشرح أحد آثار عظمة وربوبية البارئ عزّ وجلّ في نظام عالم الكون، وذلك عندما تشير إلى مسألة (نزول المطر) من السماء، ثمّ إلى نمو آلاف الأنواع من الزرع بمختلف الألوان بعد أن تسـقى من ماء عـديم اللون، وإلى مراحـل نموها حتى وصـولها إلى المرحلة النهائية وتقـول موجهة الخطاب إلى النبي الأكرم(ص) باعتباره القدوة لجميع المؤمنين (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض)[1].

قطرات المطر التي تبعث الحياة حينما تنزل من السـماء تمتصـها الطبقة الأولى من طبقات الأرض، وعندما تنفذ إلى داخل هذه الطبقة تقف عند طبقة اُخرى في

1. «يهيـج» مـن مادة (هيجان) ولها معنيان في اللغة، الأوّل هو جاف النبات واصـفراره، والثّاني هو التحرك والانتفاض، ومن الممكن أو يعود المعنيان إلى أصل واحد، لأنّ النبات حينما يجفّ فإنه يستعد للانفصال والانتشار والتحرك والهيجان.

الأرض ولا تتمكن من النفوذ خلالها، لتبعث مرّة أُخرى إلى سـطح الأرض بصورة عيون وقنوت وآبار.

كلمـة (سـكله) تعني (نفـوذ مياه الأمطار في داخل قشـرة الأرض) وهذه إشـارة مختصرة لما ذكرناه آنفاً.

«ينابيع» هي جمع (ينبوع) مشـتقّة من (نبع) وتعني فوران الماء من داخل الأرض. ولو كانت للأرض قشرة واحدة لا تمتلك القابلية على الامتصاص، فإنّ مياه الأمطار النازلة سوف تتجه بأكملها بعد هطولها إلى البحار لتصب فيها من دون أن تخزن داخل قشـرة الأرض، وفي هذه الحالة ينعدم وجود العيـون والقنوات والآبار. وإذا كانـت الأرض ذات قشـرة واحدة نفوذيـة تماماً، فإنّ كلّ ميـاه الأمطار تتجه نحو أعمق مناطق باطن الأرض، وفي تلك الحالة يستحيل الوصول إليها واستخراجها، فتنظيم قشـرة الأرض بحيث توجد طبقتان إحداها نفوذية والأُخرى غير نفوذية، وبدرجات معينة، كلّ ذلك ثمّ وفق حسابات خاصة، تبيّن قدرة البارئ عزّ وجلّ.

والملفت للنظر أنّ قشـرة الأرض تكون أحياناً ذات طبقات متعددة، بعضها نفوذي والبعض الأخر غير نفوذي، ومرتبة الواحدة فوق الأُخرى ويستفاد منها في عمليات حفر الآبار (السـطحية) و(العميقة) و(نصف العميقة). وتضيف الآية فيما بعد: (ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه) ذات الأشكال المختلفة.

أي مختلف الأنواع كالحنطة والشعير والزر والذرة، ذات الأشكال المختلفة والألوان الظاهرية المتعددة، فمنها الأخضـر الغامق، والأخضـر الفاتح، وبعضها ذو أوراق عريضة وكبيرة، والبعض الآخر ذو أوراق دقيقة وصغيرة.

وممّا يذكر أن كلمة (زرع) تطلق على النباتات ذات الساق الدقيق، فيما تطلق كلمة (شـجر) على الأشجار ذات السـيقان القوية، وكلمة (زرع) ذات معان كثيرة تشمل النباتات الطبيعية التي لا يمكن الاستفادة منها للغذاء، وأنواع الورد ونباتات الزينة والأعشـاب الطبية التي يؤخذ منها الدواء، وأحياناً نرى في غصن واحد، ولربّما في وردة واحدة عدّة ألوان جميلة جذابة، تسبح وتوحد البارئ عزّ وجلّ بلسان صامت.

ثـمّ تنتقل الآية إلى مرحلة أُخـرى من مراحل حياة هذه النباتـات، إذ تقول: (ثم يهيج فتراه مصـفراً)[2] حيث تعصـف به الرياح من كلّ جانـب لتقلعه من مكانه بسبب ضعف سيقانه ويضيف تعالى: (ثم يجعله حطاماً). نعم، إن في هذا لذكرى لأصحاب العقول وأهل العلم (إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب).

هذا المشـهد يذكّر الإنسـان بالنظام الدقيق والعظيم الذي وضعه البارئ عزّ وجلّ لعالم الوجود، وإنّه تذكير بنهاية الحياة وانطفاء شـعلتها، ومن ثمّ بمسـألة البعث وعودة الأموات إلى الحياة. فرغم أنّ هذا المشـهد يتعلّق بعالم النبات، إلاّ أنّه ينبّه الإنسـان إلى أن مثل هذا الأمر سـوف يتكرر في حياته وعمره هو أيضـاً مع وجود بعض الاختلاف في مدّة الأعمار، ولكن الأسـاس واحد إذ يبدأ بالولادة يتدرج إلى النشاط والشباب، ومن ثمّ الذبول والكهولة، وفي النهاية الموت.

وكتتمة لهذا الدرس الكبير في التوحيد والمعاد، تنتقل الآيات إلى المقارنة بين المؤمنين والكافرين، كي توضـح حقيقة أنّ القرآن والوحي السـماوي هما كقطرات المطر التي

2. هذه الآية تتضـمّن جملة محذوفة تتضـح من خلال الجملة التي تليها وعند تقديرها تصـبح الآية (أفمن شـرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه كمن هو قاسي القلب لا يهتدي بنور).

تهطل على الأرض، وكما أنّ الأرض التي لها الاستعداد هي التي تستفيد من قطرات المطر، فكذلك القلوب المستعدة لبناء ذاتها بالاستعانة بلطف الله، هي -فقط- التي تستفيد من آيات الله، وذلك طبقاً لقوله تعالى: (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه)[3] كمن هو قاسي القلب لا يهتدي بنور!!

أمّا القاسية قلوبهم، فهم الذين لا تؤثر بهم المواعظ ولا الوعيد ولا البشرى، ولا الآيات القرآنية المؤثرة، ولا ينمي مطر الوحي الباعث للحياة عندهم ثمار التقوى والفضيلة، وبصورة موجزة يمكن القول بأنّهم كالنباتات التي لا طراوة فيها ولا أوراق ولا ثمار ولا ظلّ.

نعم (أولئك في ظلال مبين).

«القاسية» مشتقّة من (قسوة) وتعني الخشونة والصلابة والتحجر، لذلك تطلق صفة (قاسية) على الأحجار الصلبة، ويقال للقلوب التي لا تظهر أي استجابة لنور الحق والهداية، ولا تلين ولا تستسلم لها، ولا تسمح بنفوذ نور الحقّ والهداية إليها (قلوب قاسية).

على أي حال، فإنّ هذه العبارة جاءت في مقابل (انشراح الصدر) وسعة الروح،

3. تفسير القرطبي، المجلد الثامن، الصفحة 5691 (تفسير سورة الزمر ذيل آيات البحث) نقل هذا الحديث مع اختلاف جزئي عن (روضة الواعظين) للشيخ المفيد.

لأنّ الرحابة والاتساع كناية عن الاستعداد للاستقبال، فالشارع والبيت الواسع يمكنهما أن يضمّا أناساً كثيرين، وكذلك الصدر الواسع والروح المنشرحة، فإنّها مستعدّة لتقبّل حقائق أكثر.

ونقرأ في إحدى الرّوايات أنّ ابن مسعود قال: سئل رسول الله(ص) عن تفسير هذه الآية: (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه) فقال(ص): «إذا دخل النور في القلب انشرح وانفتح».

ثم قلنا: يا رسول الله ما هي علامات انشراح الصدر؟ فقال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله»[4].

أمّا علي بن إبراهيم فيقول في تفسيره أن عبارة: (أفمن شرح الله صدره للإسلام) نزلت في حقّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب(ع). وقد ورد في تفاسير أُخرى أنّ عبارة: (فويل للقاسية قلوبهم) نزلت بحقّ (أبي لهب وأبنائه)[5].

ومن الواضح أنّ أسباب النّزول هنا هي في الحقيقة من باب تطبيق المفهوم العام على المصاديق الواضحة.

إنّ ما يلفت النظر في عبارة: (فهو على نور من ربه) أنّ النور والضياء جعل هنا بمثابة مركبة يركبها المؤمنون فتسير بهم بسرعة عجيبة ومسير واضح وقدرة على طواف العالم كلّه.

4. تفسير الصافي ذيل آيات البحث.
5. بحار الانوار، المجلد 70، الصفحة 55، الحديث 23.

بحـــــــــث

عوامل (شرح الصدر) و(قسوة القلب)

النـاس ليسـوا على وتـيرة واحدة من حيث قبـول الحق وإدراك الأُمـور، فالبعض يتمكّن من إدراك الحقيقة بمجرّد إشـارة واحدة أو جملة قصـيرة، وهذا يعني أنّ تذكـيراً واحداً يكفي لإيقاظهم فوراً، وموعظة واحدة قادرة على إحداث صـيحات في أرواحهم وفي حين أنّ البعض الآخر لا يتأثّر بأبلغ الكلمات وأوضح الأدلّة وأقوى العبارات، وهذه المسألة ليست بالأمر السهل أو الهيّن.

وكم هي جميلة التعابير القرآنية في هذا المجال، وذلك عندما تصف البعض بأنّهم ذوو صدور منشرحة وأرواح واسعة، وتصف البعض الآخر بأنّهم ذوو صدور ضيقة، كما ورد في الآية (125) من سورة الأنعام: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنّما يصعد في السماء).

هذا الموضـوع يتّضـح بصـورة كاملة في حالة دراسـة أوضـاع وأحوال الأشخاص، فالبعض لهم صـدور منشـرحة رحبة تتسع لاسـتيعاب أيّ مقدار من الحقائق، في حين أنّ البعض الآخر على العكس، إذ إنّ صـدورهم ضـيقة وأفكارهم محدودة لا يمكنها أحياناً استيعاب أيّ حقيقة، وكأن عقولهم محاطة بجدران فولاذية لا يمكن اختراقها. وبالطبع لكلّ واحد منهما أسبابه.

فالدراسـة الدائمة والمسـتمرة والاتصـال بالعلمـاء والحكماء الصـالحين، وبناء

الذات وتهذيب النفس، واجتناب الذنوب وخاصة أكل الطعام الحرام، وذكر الله دائماً، كلها أسباب وعوامل لانشراح الصدر، وعلى العكس فإنّ الجهل والذنب والعناد والجدل والرياء، ومجالسة أصحاب السوء والفجار والمجرمين وعبيد الدنيا والشهوات، كلّها تؤدّي إلى ضيق الصدر وقساوة القلب.

فعندما يقول القرآن الكريم: (فمن يرد الله يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً). فهذه الإرادة وعدم الارادة ليست اعتباطية وبدون دليل. بل هي نابعة من أعماقنا وذواتنا في البداية.

وقد ورد حديث عن الإمام الصادق(ع) جاء فيه: «أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى: يا موسى لا تفرح بكثره المال، ولا تدع ذكري على كلّ حال، فإن كثرة المال تنسي الذنوب، وإن ترك ذكري يقسي القلوب «[6].

وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين(ع)، جاء فيه: «ما جفت الدموع إلاّ لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب»[7].

كما ورد في حديث ثالث أنّ من جملة كلام الله سبحانه وتعالى مع موسى(ع) «يا موسى لا تطول في الدنيا أملك، فيقسو قلبك، والقاسي القلب مني بعيد»[8].

6. بحار الأنوار، المجلد 70، الصفحة 55، الحديث 24.
7. الكافي، المجلد الثّاني، باب القسوة الحديث (1).
8. نفس المصدر السابق الحديث (3).

وأخـيراً، ورد حديث آخر عن أمير المؤمنين(ع) جاء فيه: «لمتان: لمة من الشـيطان ولمة من الملك، فلمّة الملك الرقة والفهم، ولمّة الشيطان السهو والقسوة»[9].

على أي حال، فإن من يريد انشـراح صـدره وإزالة القسـاوة من قلبه، عليه أن يتوجـه نحـو البارئ عزّ وجـلّ كي يبعث الأنـوار الإلهية في قلبه كمـا وعد بذلك الرّسـول الأكرم(ص). وعليه أن يصـقل مرآة قلبه من صـدأ الذنوب، ويطهّر روحـه من أوسـاخ هوى النفس والوسـاوس الشـيطانية، اسـتعداداً لاسـتقبال المعشـوق، وأن يسـكب الدموع خوفاً من الله وحباً له، فإنّ في ذلك تأثيراً عجيباً لا نظـير له على رقّة ولين القلب ورحابة الـروح، وفي المقابل فإن جمود العين هو إحدى علامات القلب المتحجر.

9. سـبب النّزول ورد باختلاف يسـير في تفسير (الكشاف) المجلد الرابع ص 123 وفي تفسير (القرطبي) و(الألوسي) و(أبو الفتوح الرازي) وغيرها، وذلك في ذيل آيات البحث.

الآيـــــــــــات 23 - 26

اللّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَباً مُتَشَبِهاً مثاني تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُـمَّ تَلِـينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْـرِ اللّهِ ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَـآءُ وَ مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23) أَفَمَنْ يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَـمَةِ وَ قِيلَ لِلظَّلِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِـبُونَ (24) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ (25) فَأَذَاقَهُمُ اللّهُ الخزي فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (26)

سبب النّزول

نقل بعض المفسّرين عن (عبد الله بن مسعود) أنّ جمعاً من الصحابة ملّوا وتضجّروا، فقالـوا لرسـول الله (ص): حدّثنا حديثاً يزيل السـأم من نفوسـنا والملل من قلوبنا، فنزلت أول آية من الآيات المذكورة أعلاه معرّفة القرآن بـ (أحسن الحديث)[10].

التّفسير

الآيـات السـابقة تحدثت عن العباد الذين يسـتمعون القول ويتبعون أحسـنه، كما تحدثت عن الصدور الرحبة المستعدة لتقبل الحقّ.

10. قال الزمخشري في الكشاف: إن (مثاني) يمكن أن تكون جمع (مثنى) على وزن (مصلّى) وتعني المكرّر، ويمكن أن تكون جمع (مثنى) على وزن (مبنى) من التثنية بمعنى التكرار، الكشاف، المجلد الرابع، الصفحة 123.

الآيـات التي يـدور حولها البحث تواصـل التطرق إلى هذا الأمر، كـي تكمل حلقات البحـوث السـابقة الخاصـة بالتوحيد والمعاد مـع ذكر بعض دلائل النبـوّة، إذ تقول الفقرة الأُولى من الآية: (الله نزّل أحسن الحديث). ثم تستعرض خصائص القرآن الكريم، حيث تشرح الخصائص المهمّة للقرآن من خلال بيان ثلاث صفات له:

أمّا الخاصية الأُولى: فهي(كتاباً متشابهاً) المقصود من (متشابه) هنا هو الكلام المتناسـق الذي لا تناقض فيه ويشـبه بعضه البعض، فلا تعارض فيه ولا تضادّ، وكلّ آية فيه أفضل من الأُخرى والمتماثل من حيث اللطف والجما ل والعمق في البيان.

وهذا بالضـبط على عكس العبارات التي يصـوغها الإنسـان، والتـي مهما اعتنى بصياغته فإنّها لن تخلو من الاخطاء والاختلافات والتناقضات، خصوصاً عندما يتسـع مجالها وتأخذ أبعاداً أوسع، إذ تلاحظ أنّ بعضها في قمّة البلاغة، والبعض الآخر عادي وطبيعي، ودراسة آثار الكتّاب الكبار المعروفين في مجالي النثر والشعر هي خير شاهد على هذا الموضوع.

أمّا كلام الله المجيد فليس كذلك، إذ نرى فيه انسجاماً خارقاً، وتناسقاً لا نظير له في المفاهيم والفصاحة والبلاغة، وهذا بحدّ ذاته يجعل آيات القرآن تحكم وتشهد بأنّه ليس من كلام البشر.

أما الخاصـية الثّانية: فهي (مثاني) -أي المكرر- وهذه الكلمة تشـير إلى تكرار بحوثه المختلفة وقصصـه ومواعظه، التكرار الذي لا يملّ منه الإنسان، وإنّما على العكس من ذلك، إذ يتشـوق لتلاوته أكثر، وهذه إحدى أُسـس الفصاحة، إذ يعمد

الإنسان أحياناً إلى التكرار وبصور مختلفة وأساليب متنوعة، وذلك إذا أراد التأكيد على أمر ما وجلب الانتباه إليه والتأثّر به، كي لا يملّ السامع أو يضجر منه.

إضافة إلى أنّ مواضيع القرآن المكررة تفسّر إحداها الأُخرى، وتحل الكثير من ألغازه عن هذا الطريق. بعضهم اعتبرها إشارة إلى تكرار تلاوة القرآن وبقائه غضاً طرياً من جراء تكرار تلاوته.

والبعض الآخر اعتبرها إشارة إلى تكرار نزول القرآن، فمرّة نزل دفعة واحدة على صدر الرّسول الأكرم(ص) وذلك في ليلة القدر، ومرّة أُخرى بصورة تدريجية استمرت لفترة (23) عاماً. ومن المحتمل أن يكون المراد من التكرار هو ملاءمة القرآن لكلّ زمان، وانكشاف بعض الأُمور الغيبية فيه بمرور السنوات.

والتّفسير الأوّل أنسب من بقية التفاسير، رغم عدم وجود أيّ تعارض بين الجميع، بل من الممكن أن تكون جميعها صحيحة[11].

أمّا الخاصية الثّالثة: فهي (تقشعر منه الجلود) وهذه الخاصية للقرآن فهي مسألة نفوذه وتأثيره العميقين والخارقين (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربّهم ثمّ تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله).

إنّه لوصف وتجسيد لطيف وجميل لنفوذ آيات القرآن العجيب إلى أعماق القلوب، إذ إنّه في بداية الأمر يبعث في القلب شيئاً من الخوف والرهبة، الخوف الذي يكون

11. (تقشعر) من مادة (قشعريرة) وقد ذكر اللغويون والمفسّرون معاني مختلفة ومتقاربة بعض الشيء، فالبعض قال: إنّها تعني انكماش جلد البدن (حالة تصيب الإنسان أثناء خوفه) والبعض قال: إنّها الرجفة التي تصيب الإنسان في حالة الخوف، والبعض الآخر قال: إنّها تعني وقوف شعر البدن، وفي الحقيقة فإنّ كلّ حالة من هذه الحالات ملازمة للأخرى.

أساساً للصحوة ولبدء الحركة، والرهبة التي تجعل الإنسان يتحسس مسؤولياته المختلفة. ثمّ تأتي مرحلة الهدوء وقبول آيات الله وتتبعها السكينة والاستقرار.

هذه الحالة التدريجية التي تبيّن مراحل (السلوك إلى الله) المختلفة، يمكن إدراكها بسهولة، فالقلوب تقشعر فور ما تسمع آيات التهديد والتحذير النازلة على رسول الله(ص)، ثمّ تهدأ فور ما تسمع آيات الرحمة.

التفكير بذات الله ومسألة أبديته وأزليته وعدم محدوديته يوجد عند الإنسان حالة من الرهبة في كيفية معرفة الله، إلاّ أنّ دراسة آثار ودلائل ذاته المقدسة في الآفاق والأنفس تمنح الإنسان نوعاً من الارتياح والهدوء[12]. والتأريخ الإسلامي مليء بالشواهد على التأثير العجيب للقرآن في قلوب المؤمنين، وحتى غير المؤمنين من أصحاب القلوب المستعدة لتقبل الإيمان، فالجاذبية أو النفوذ الخارق للقرآن دليل واضح على أنّ القرآن كتاب نزل من السماء بواسطة الوحي.

وقد ورد حديث عن (أسماء)، جاء فيه (كان أصحاب النّبي حقاً إذا قرئ عليهم القرآن -كما نعتهم الله- تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم)[13].

أمير المؤمنين(ع) وصف هذه الحقيقة بأفضل وجه في الخطبة الخاصة بالمتقين، إذ قال: «أمّا الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا، يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها

12. تفسير القرطبي، المجلد الثامن، الصفحة 5693، عن التأثير العميق والخارق لآيات القرآن، أوردنا روايات عديدة في ذيل الآية 92 من سورة آل عمران.

13. هذه العبارة فيها محذوف، التقدير (أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن هو آمن لا تمسه النار).

طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنّها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أنّ زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم». وفي نهاية الآية يقول تعالى بعد أن بيّن تلك الخصائص: (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء). حقاً إنّ القرآن نزل لهداية الجميع، لكن المتقين وطلاب الحقّ والحقيقة هم المستفيدون -فقط- من نوره، أمّا أُولئك الذين تعمدوا إغلاق كل نوافذ قلوبهم أمام نور القرآن الكريم، والذين تتحكم بأرواحهم ظلمات التعصب والعناد فقط لا يستفيدون من نور القرآن، وإنّما يزدادون ضلالة جراء عنادهم وعدائهم، لذلك فإن تتمة الآية تقول: (ومن يضلل الله فما له من هاد). فهذه الضلالة هي التي يضع الإنسان حجر أساسها بيده، ويحكم بناء أساسها بواسطة أعماله الخاطئة والسيئة، ولذلك لا تتنافى إطلاقاً مع إرادة الإنسان وحريته.

الآية التالية تقارن بين مجموعة من الظالمين والمجرمين، ومجموعة من المؤمنين الذين استعرضت أوضاعهم فيما قبل، وذلك كي تجعل الحقيقة أكثر وضوحاً في هذه المقارنة، إذ تقول: (أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة)[14] كمن هو آمن في ذلك اليوم ولا تمسّه النّار أبداً؟!.

الملاحظة التي ينبغي الالتفات إليها، هي قوله تعالى: (يتقي بوجه سوء العذاب) وكما هو معروف فإنّ الوجه أشرف أعضاء جسم الإنسان، لأنّ فيه (العينان والفم والأذنان) التي هي أهم حواسّ الإنسان، وأساساً فإنّ تشخيص الإنسان إنّما يتمّ عن طريق وجهه، ولهذه الخصائص الموجودة في الوجه، فإنّ الإنسان عندما يحسّ أنّ هناك خطراً سيصيب وجهه، فإنّه يضع يديه وما يمكن من أعضاء جسمه

14. كلمة (خزي) تعني الذلّ والهوان كما تعني الفضيحة (يراجع لسان العرب).

أمام وجهه كدرع لدرء ذلك الخطر. إلا أن أوضاع الظالمين في جهنم في ذلك اليوم تجبرهم على استخدم وجوههم كوسيلة دفاعية، لأنّ أيديهم وأرجلهم مقيدة بالسلاسل، كما ورد في الآية (الثامنة) من سورة يس: (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون).

قال البعض: بما أنّ أهل جهنم يرمون على وجوههم في النّار، لذا فإنّ الوجه هو أوّل عضو من أعضاء الجسم يحترق في نار جهنم، كما ورد في الآية (90) من سورة النمل: (من جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النّار). والبعض الآخر قال: إنّ هذه العبارة كناية عن عجز أهل جهنم من الدفاع عن أنفسهم مقابل نار جهنم.

التفاسير الثلاثة -هذه- لا تتعارض مع بعضها، ويمكن أن تعطي جميعها مفهوم الآية.

ثم تضيف نهاية الآية: (وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون).

نعم، إنّ ملائكة العذاب هي التي توضح لهم هذه الحقيقة المرّة والمؤلمة، إذ يقولون لهم: إنّ أعمالكم ستبقى معكم وستعذبكم، وهذا التوضيح هو تعذيب روحي آخر لهؤلاء.

ومما يلفت النظر أنّ هذه العبارة لا تقول: ذوقوا عقاب ما كنتم تكسبون، وإنّما تقول لهم: ذوقوا ما كنتم تكسبون، وهذا شاهد آخر على مسألة تجسيد الأعمال يوم القيامة.

إنّ ما قيل لحدّ الآن هو إشارة بسيطة لعذابهم الأليم في يوم القيامة، والآية التالية تتحدّث عن العذاب الدنيوي لهؤلاء، كي لا يتصور أحد أنّه يعيش في أمان بهذه الدنيا، قال تعالى: (كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون). فالإنسان لا يتألم كثيراً إن أُصيب بضربة كان يتوقعها، إلاّ أنّه يتألم كثيراً إن وجهت

إليه ضـربة من طرف لم يتوقع أن تصدر منه، كأن تصدر عن أقرب أصدقائه، أو يلحق به أذى من أُمور حيوية جداً ومحبوبة له كالماء الذي هو مصدر حياة الإنسان، أو من نفحة النسـيم التي هي مصدر نشاطه، أو من الأرض الهادئة التي هي مقر استراحته وأمنه. نعم، إنّ نزول العذاب الإلهي بواسطة هذه الطرق يعدّ أمراً مؤلماً جـدّاً، كالذي أصـاب قوم نوح وعاد وثمود ولوط وفرعون وقـارون وأمثالهم، إذ لم يكن أي أحد منهم يتوقع أن يصيبه العذاب بواسطة إحدى الطرق المذكورة أعلاه.

الآيـة الأخيـرة في بحثنـا هـذا تبيّن أنّ عـذاب هـؤلاء الدنيـوي لا يقتصـر علـى العـذاب الجسـدي، وإنّما يشتمـل أيضـاً علـى عقـوبـات نفسيـة: (فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا)[15].

نعم، فإن أُصـيب الإنسـان بمصـيبة في هذه الدنيا، ثمّ خرج منهـا مرفوع الرأس حافظاً لماء وجهه، فهذه الحالة ليست بعار وخزي على الإنسان، إنّما العار والخزي للإنسان الذي يخرج من هذه الدنيا رذيلا وذليلا، ومبتلىً بعذاب فاضح يريق ماء وجهه، (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون).

كلمة (أكبر) كناية عن شدّة العذاب وقسوته.

بحـــــــــث

وردت روايات عدّة في ذيل الآيات التي مورد البحث تجسّم أمامنا آفاقاً أوسع مهما يفهم من الآية. إذ نقل العباس عم النّبي، حديثاً عن رسـول الله(ص) جاء في، «إذا

15. (مجمع البيان) ذيل آيات البحث، كما نقل هذه الرواية أبو الفتوح الرازي والقرطبي مع شيء من الاختلاف.

اقشـعر جلد العبد من خشـية الله تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها»[16]. ومن الواضـح أن الشـخص الذي يخشـى الله ويتأثر مـن ذلك إلى هذه الدرجة لابدّ أن تتوفر فيه حالة التوبة والإنابة، ومثل هذا الشخص سيكون مورداً لعفو الله ومغفرته حتماً.

وروي عن (أسـماء) إذ قالت عندما سـئلت عن أصحاب رسول الله فقالت: (كان أصـحاب النّبـي حقـاً إذا قُـرِئ عليهـم القرآن -كمـا نعتهم الله- تدمـع أعينهم وتقشـعر جلودهم). وأضاف الراوي: سألت أسـماء: هل عندنا أحد يغمى عليه أو يفقد الوعي عندما يسـمع آيات القرآن المجيد، فأجابت أسـماء: أعوذ بالله تعالى من الشيطان، (أي إنّه من عمل الشيطان)[17].

هـذا الحديث -في الحقيقة- جواب لأُولئك المتصـوفة الذين يعقدون الاجتماعات والحلقـات، ويقـرأون فيها بعضـ الآيـات والأذكار، ثمّ يقومـون ببعض الحركات بعنـوان حالـة الوجد والسـرور، ثمّ يشـرعون بإطـلاق بعض الصـيحات وإظهار أنفسـهم وكأنّهم قد أُغشـي عليهم، ويحتمل أن البعض يغشى عليه فعلا. مثل هذه الأُمـور لم ينقلهـا أحد أبداً بشـأن أصـحاب الرّسـول، وما هي إلاّ بدعـة ابتدعها المتصـوفة. وبالطبع يمكن أن يندهش الإنسـان أحياناً وقد يغشـى عليه من شـدّة خوفـه مـن البارئ عزّ وجلّ، وهذا الأمر يختلف كثيراً عن ممارسـات الصـوفيين الذين يعقدون الحلقات للذكر التي ذكرناها آنفاً.

16. أورد الألوسي هذا الحديث في روح المعاني، المجلد 23، الصفحة 235، كما أورده بعض المفسّرين في ذيل الآية.

17. الموقـع الإعرابـي لقوله تعـالى: (قرآناً عربياً) حال لـ (القرآن) التي ذكرت من قبل، ولكـون كلمة (قرآناً) لا تحمل طابع الوصـف فقـد قال البعضـ: إنّها توطئة للحال الذي هو (عربيـاً) وذهب البعض إلى أنها بمعنى (مقروءا) وتعطي معنى الوصـف، والبعض قال: إنّها منصوبة على المدح بتقدير فعل.

الآيـــــــــــات 27 - 31

وَلَقَـدْ ضَـرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـذَا الْقُـرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّـرُونَ (27) قُرْءَاناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (28) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـكِسُونَ وَرَجُلاً سَـلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْـتَوِيَانِ مَثَلا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (29) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَـمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31)

التّفسير

قرآن لا عوج فيه:

الآيات –هنا- تبحث خصـائص القرآن المجيد أيضـاً، وتكمل البحوث السـابقة في هذا المجال.

ففـي البداية تتحدّث عن مسـألة شـمولية القرآن، إذ تقول الآيـة الكريمة: (ولقد ضـربنا للناسـ في هذا القرآن من كلّ مثل). حيث تمّ فيه شـرح قصـص الطغاة والمتمردين الرهيبة، وعواقب الذنوب الوخيمة، ونصـائح ومواعظ، وأسرار الخلق ونظامه، وأحكام وقوانين متينة.

وبكلمة إنّه أوضـح فيه كلّ ما هو ضـروري لهداية الإنسان على شكل أمثال، لعلهم يتذكرون ويعودون من طريق الضلال إلى الصراط المستقيم (لعلهم يتذكرون).

وممّا يذكر أنّ «المثل» في اللغة العربية هو الكلام الذي يجسّم الحقيقة، أو يصف

الشـيء، أو يشبه الشيء بشـيء آخر، وهذه العبارة شـملت كلّ حقائق ومواضيع القـرآن، وبيّنـت شـموليته. ثم تتطـرق الآية إلى وصـف آخر للقـرآن، إذ تقول: (قرآناً عربياً غير ذي عوج)[1].

في الحقيقة، تمّ هنا ذكر ثلاث صفات للقرآن:

الأُولى: كلمة (قرآناً) التي هي إشـارة إلى حقيقة أنّ الآيات الكريمة ستبقى تتلى دائماً، في الصـلاة وفي غير أوقات الصلاة، في الخلوات وفي أوساط الناس، وعلى طول التاريخ الإسلامي حتى قيام الساعة، وبهذا الترتيب فإن آيات القرآن ستبقى نور الهداية المضيء على الدوام.

الصفة الثانية: هي فصاحة وحلاوة وجاذبية هذا الكلام الإلهي، الذي عبّر عنه بـ (عربياً) لأنّ إحدى معاني العربي هي الفصاحة، والمقصود منه هنا هذا المعنى.

الصفة الثّالثة: ليس فيه أي اعوجاج، فآياته منسجمة، وعباراته ظاهرة ويفسّر بعضها البعض[2]. الكثير من اللغويين وأصحاب التّفسير قالوا: إنّ (عوج) (بكسر العين) تعني الانحرافات المعنوية، في حين أنّ (عوج) بفتح العين، تعني الاعوجاج الظاهر.

ومن النادر اسـتعمال العبـارة الأولى في الاعوجاج الظاهري، ما في الآية (107) من سـورة طه: (لا ترى فيهـا عوجاً ولا أمتاً) لهذا فإنّ بعض اللغويين يعتبرونها أكثر عمومية[3].

1. كلمة (عوج) جاءت بصورة نكرة في سياق النفي، وتعطي معنى النفي العام لعدم لوجود أي انحراف وانعطاف في القرآن.
2. يراجع (مفردات الراغب) و(لسان العرب) وغيرها من التفاسير.
3. «متشاكسـون»: أصـلها من (شكاسة) وتعني سوء الخلق والتنازع والاختصـام، ولهذا يقال «متشاكس» لمن يتخاصم ويتنازع بعصبية وسوء خلق.

وعلى أي حال، فإنّ الهدف من نزول القرآن الكريم -بكل هذه الصفات التي ذكرناها- هو (لعلهم يتقون). وممّا يلفت النظر أنّ الآية السابقة انتهت بعبارة: (لعلهم يتذكرون) وهنا انتهت بعبارة: (لعلهم يتقون) لأنّ التذكّر يكون دائماً مقدّمة للتقوى و«التقوى» هي ثمرة شجرة «التذكر».

ثمّ يستعرض القرآن المجيد أحد الأمثال التي ضربت ليرسم من خلاله مصير الموحّد والمشرك، وذلك ضمن إطار مثل ناطق وجميل، إذ يقول: (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون)[4]. أي إنّ هناك عبداً يمتلكه عدّة أشخاص، كلّ واحد منهم يأمره بتنفيذ أمر معين، فهذا يقول له: نفذ العمل الفلاني، والآخر ينهاه عن تنفيذ ذلك العمل، وهو في وسطهم كالتائه الحيران، لا يدري أي أمر ينفّذ، فالأمران متناقضان ومتضادان، ولا يدري أيّاً منهما يرضيه؟

والأدهى من كلّ ذلك أنّه عندما يطلب من أحدهم توفير مستلزمات حياته، يرميه على الآخر، والآخر يرميه على الأوّل، وهكذا يبقى محروماً محتاجاً عاجزاً تائهاً. وفي مقابله هناك رجل سلم لرجل واحد (ورجلا سلماً لرجل).

فهذا الشخص خطه ومنهجه واضح، وولي أمره معلوم فلا تردد ولا حيرة ولا تضاد ولا تناقض، يعيش بروح هادئة ويخطو خطوات مطمئنة، ويعمل تحت رعاية فرد يدعمه في كلّ شيء وفي كلّ أمر وفي كلّ مكان. فهل أنّ هذين الرجلين متساويان (هل يستويان مثلا).

4. نقله (الحاكم أبو القاسم الحسكاني) في شواهد التنزيل.

هذا المثال ينطبق على (المشـرك) و(الموحد) فالمشرك يعيش في وسط المتضادات والمتناقضات، وكل يوم يتعلق قلبه بمعبود جديد، فلا استقرار في حياته ولا اطمئنان ولا مسـير واضح يسـلكه. أما الموحّدون فإنّهم يعشقون الله وحده، وفي كلّ الأحوال يلجـؤون إلى ظـلّ لطفه، ولا تنظر عيونهم إلى سـواه، فطريقهم ونهجهم واضـح، ومصيرهم ونهايتهم واضحة أيضاً.

وجاء في حديث لأمير المؤمنين ع «أنا ذاك الرجل السلم لرسول الله»[5].

وورد في حديث آخر عنه أيضاً «الرجل السلم للرجل حقاً علي وشيعته»[6].

وفي نهاية الآية يقول تعالى: (الحمد للّه) فاللّه سبحانه وتعالى بذكره لتلك الأمثال يرشدكم إلى أفضل السبل، ويضع تحت تصرفكم أوضح الدلائل لتشخيص الحقّ عن الباطل، فالبارئ عزّ وجلّ يدعو الجميع إلى الإخلاص وفي ظل الاخلاص تكون السـكينة والراحة، فهل هناك نعمة أفضـل من هذه، وهل هناك أمر آخر يستحق الحمد والشكر أكثر من هذه النعمة؟!

ولكن أكثرهم لا يعلمون رغم وجود هذه الدلائل الساطعة، إذ أنّ حبّ الدنيا والشهوات الطاغية عليهم يجعلهم يضـلون عن طريق الحقيقة: (بل أكثرهم لا يعلمون). وتتمّة لبحث الآيات السابقة بشأن التوحيد والشرك، تتحدث الآية التالية عن نتائج الشرك والتوحيد في موقف القيامة. إذ تبدأ بمسـألة الموت الذي هو بوابة القيامة، وتبيّن لكلّ

5. نقله العياشي في تفسيره مجمع البيان، ذيل آيات البحث.
6. عبارة (إنّك ميت وإنّهم ميتون) على الظاهر تعطي معنى موت الجميع في الوقت الحاضر، وهي من قبيل (المضارع المتحقق الوقوع) الذي يأتي أحياناً بصورة حال وأحياناً أُخرى بصورة الماضي.

البشرية أنّ قانون الموت عامّ وشامل للجميع: (إنّك ميت وإنّهم ميتون)[7].

نعم، فالموت من الأمور التي تشمل جميع الناس، ولا يستثنى منه أحد، فهو طريق يجب أن يمرّ به الجميع في نهاية المطاف.

قال بعض المفسّرين: إنّ أعداء رسول الله كانوا ينتظرون وفاته، وكانوا في نفس الوقت فرحين مسرورين لكون رسول الله (ص) يموت في نهاية الأمر، فالقرآن -هنا- أجابهم بالقول: إن مات رسول الله فهل تبقون أنتم خالدين، هذا ما نصت عليه الآية (34) من سورة الأنبياء: (أفإن مت فهم الخالدون). ثم ينتقل البحث إلى محكمة يوم القيامة، ليجسم المجادلة بين العباد في ساحة المحشر، (ثم إنّكم يوم القيامة عند ربّكم تختصمون).

«تختصمون»: مشتقّة من (اختصام) وتعني النزاع والجدال بين شخصين أو مجموعتين تحاول كل، منهما تفنيد كلام الأخر، فأحياناً يكون أحدهم على حقّ والآخر على باطل، وأحياناً يكون الاثنان على باطل، كما في مجادلة ومخاصمة أهل النّار فيما بينهم، وقد اختلف المفسّرون في كون هذا الحكم عاماً أم لا.

قال البعض: إنّ المخاصمة تقع بين المسلمين والكفار.

وقال البعض الآخر: إنّها تقع بين المسلمين أنفسهم، وفي رواية عن أبي سعيد الخدري قال: لم يكن أحد فينا يفكر في أن يقع خصام فيما بين المسلمين، وكنّا نقول: كيف نختصم نحن وربّنا واحد، ونبيّنا واحد ودِيننا واحد؟ فلما كان يوم صفين وشدّ

7. مجمع البيان، المجلد8، الصفحة 497.

الفريقـان اللذيـن كانا مسـلمين (حيث كان أحدهما مسـلماً حقيقيـاً والآخر يدعي الإسلام) بالسيوف على بعضهما البعض، قلنا: نعم، الآية تشملنا نحن أيضاً[8].

ولكـن الآيـات التاليـة تبيّن أنّ المخاصـمة تقـع بين الأنبيـاء والمؤمنـين من جهة، والمشركين المكذبين من جهة أُخرى.

لمّـا توفّي رسـول الله (ص) قـام عمر بن الخطـاب؛ فقال: إنّ رجـالا من المنافقين يزعمون أنّ رسـول الله قد توفّي والله رسـول اللّه ما مات، ولكنّه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثمّ رجع إليهم بعد أن قيل قد مات؛ ووالله ليرجعنّ رسـول الله (ص) كما رجع موسـى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنّ رسول الله (ص) مات؟.

وقـال الـرّاوي: وأقبل أبوبكر حتى نزل على باب المسـجد حـين بلغه الخبر، وعمر يكلّم الناس، فلم يلفت إلى شـيء حتى دخل على رسول الله (ص) في بيت عائشة، ورسول الله (ص) مسجّى في ناحية البيت، عليه بُرد حبرة؟، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله (ص) ثمّ قال الراوي: قال أبوبكر: على رسلك يا عمر أنصت فأبى إلاّ أن يتكلم ثمّ تلا أبوبكر هذه الآية: (وما محمد إلاّ رسول).

8. 1ـ غفرت: وحشت.

قـال الرّاوي: فـوالله لكأنّ الناس يعلمـوا أنّ هذه الآية ما نزلت حتـى تلا أبو بكر ثـمّ قال عمر: والله ما هو إلاّ أن سـمعت أبابكر تلاهـا فعفرت[9] حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي[10].

9. سيرة ابن هشام، المجلد الرابع، الصفحات 305 و306، نقلا عن الكامل لابن الأثير، المجلد الثّاني، الصفحة 323 و324، مع شيء من التلخيص.

10. «مثوى»: من مادة (ثواء) وتعني الإقامة المستمرة في مكان ما ولهذا فإنّ (مثوى) هنا تعني المكان والمنزل الدائم.

الآيـــــــــــات 32 - 35

فَمَـنْ أَظْلَـمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ وَ كَذَّبَ بِالْصِّـدْقِ إِذْ جَآءَهُ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوىً لِّلْكَفِرِينَ(32) وَ الَّذِى جَآءَ بِالصِّـدْقِ وَ صَـدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ(33) لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ(34) لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُواْ وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ(35)

التّفسير

أولئك الذين يصدقون كلام الله:

هذه الآيات تواصل البحث الخاصّ بموقف الناس في ساحة المحشر، وتخاصمهم في تلك المحكمة الكبرى، وتقسـم آيات بحثنا إلى مجموعتين هما (المكذبون) و(المصدقون). والقـرآن الكـريم يعطي صـفتين لأصـحاب المجموعـة الأولى، أي «المكذبين»، قال تعالى: (فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه).

الكافـرون والمشـركون يكذبون كثيراً علـى البارئ عزّ وجلّ، فأحيانـاً يعتبرون الملائكة بنات الله، وأحياناً يقولون: عيسى هو ابن الله، وأحياناً أُخرى يعتبرون الأصنام شفعاء لهم عند الله، وأحياناً يبتدعون أحكاماً كاذبة في الحلال والحرام وينسبونها إلى الله، وما شابه ذلك. وأمّا الكلام الصادق الذي أنزل إليهم وكذّبوه فهو القرآن المجيد.

خاتمة الآية تبيّن في جملة قصـيرة جـزاء أمثال هؤلاء الأفراد، قال تعالى: (أليس في جهنم مثوى الكافرين)[1].

1. مجمع البيان ذيل آيات البحث.

أمّـا المجموعة الثّانية فقد وصـفها القرآن الكريم بوصـفين، إذ قال: (والذي جاء بالصدق وصدق به أُولئك هم المتقون).

فبعضـ الرّوايات الواردة عن أئمّة الهدى(عليهم السـلام) فسّـرت: (والذي جاء بالصدق) بأنّها تعود على النّبي(ص) و(صدق به) تعود على علي(ع)[2]، وبالطبع فإن المقصـود من ذلك هو بيان مصـداقية الآية، لأنّ عبارة: (أُولئك هم المتقون) دليل على شـمولية الآية. ومن هنا يتّضـح أنّ تفسير الآية المذكورة أعلاه بأن المراد شخص رسول الله(ص) الذي هو مهبط الوحي والمصدق به في نفس الوقت، فهو أيضاً من قبيل بيان مصداق الآية وليس بيان المفهوم العام لها.

لذلك فإنّ جماعة من المفسّرين فسّروا عبارة قوله تعالى: (والذي جاء بالصدق) بأنّه يعني كلّ الأنبياء و(صدق به) يعني أتباعهم الحقيقيين، وهم المتقون. وهناك تفسـير آخر للآية، لكنّه أوسـع وأكثر شـمولية من التفاسـير الأُخرى، رغم أنّه لم يحظ كثيراً باهتمام المفسّرين، لكنّه أكثر انسجاماً مع ظاهر الآيات، والتّفسير هو أن (الذي جاء بالصـدق) ليس منحصـراً في الرّسل فقط، وإنّما يشمل كلّ الذين يبلغـون نهج الأنبيـاء ويروجون كلام الله، وفي هذه الحالة فـلا يوجد أي مانع من القول بأن العبارتين تنطبقان على مجموعة واحدة (كما يوضـح ذلك ظاهر الآية، لأنّ ضمير (والذي ذكر مرّة واحدة فقط).

2. في عودة قوله تعالى: (ليكفر الله عنهم) ذكر المفسّرون آراء شتى بهذا الشأن ولكن التّفسير الذي يبدو أنسب هو أنّها تعود على الفعل (أحسنوا) ويفهم ذلك من كلمة المحسنين، والتقدير (ذلك جزاء المحسنين أحسنوا ليكفر الله عنهم) نعم إنّهم عمدوا إلى عمل الإحسان كي يكفر الله عهم سيئاتهم ويغفر زلاتهم ويعطيهم أفضل الثواب.

وبهذا الشكل فإنّ الآية تتحدّث عن أناس هم من حملة الرسالة ومن العاملين به، وتتحدّث عن أولئك الذين ينشرون في العالم ما ينزل به الوحي من كلام البارئ عزّ وجلّ وهم يؤمنون به ويعملون به، وهكذا فإنّ الآية تضم الأنبياء والأئمّة المعصومين والدعاة لنهج الأنبياء. والملفت للنظر أنّ الآية عن الوحي «بالصدق» وهو إشارة إلى أن الكلام الوحيد الذي لا يحتمل وجود الكذب والخطأ فيه هو كلام الله الذي نزل به الوحي، فإن سار الإنسان في ظلّ تعليمات نهج الأنبياء وصدقها فإنّ التقوى سوف تتفتح في داخل روحه.

الآية التالية تبيّن أنّ هناك ثلاث مثوبات بانتظار أفراد هذه المجموعة، أي المصدقين، إذ تقول في البداية: (لهم ما يشاؤون عند ربّهم ذلك جزاء المحسنين).

لهذه الآية مفهوم واسع بحيث يشمل كلّ النعم المادية والمعنوية التي يمكن تصورها والتي لا يمكن تصورها.

وعلى ضوء هذه الآية يطرح البعض السؤال التالي: إذا طلب أحدهم أن يكون مقامه أرفع من مقام الأنبياء والأولياء، فهل يعطى ذلك؟

علينا أن لا نغفل عن كون أهل الجنّة يدركون عين الحقيقة، ولهذا لا يفكر أحد منهم بأمر يخالف الحقّ والعدالة، ولا يتناسب مع أساس توازن اللياقات والكفاءات.

بعبارة أُخرى: لا يمكن أن يحصل أشخاص لهم درجات مختلفة في الإيمان والعمل على نفس الجزاء، فكيف يأمل أصحاب الجنّة في تحقيق أشياء مستحيلة؟! وفي نفس الوقت فإنّهم يعيشون في حالة روحية خالية من الحسد والغيرة، وهم راضون بما رزقوا به.

وكما هو معلوم فإنّ المكافاة الإلهية في الآخرة وحتى التفضيل الإلهي للبعض دون البعض الآخر إنّما يتمّ على أساس اللياقة التي حصل عليها الإنسان في هذه الدنيا، فالذي يعرف أنّ إيمانه وعمله في هذه الدنيا لم يصل إلى درجة إيمان وعمل الأُخرين لا يأمل يوماً ما أن يكون بمرتبتهم، لإنّ ذلك أمل ورجاء غير منطقي. وعبارة: (عند ربّهم) تبيّن عدم انقطاع اللطف الإلهي عن أُولئك وكأنّهم ضيوف الله على الدوام، وكلّ ما يطلبونه يوفر لهم. وعبارة: (ذلك جزاء المحسنين) أقيم فيها الظاهر مقام ضمير الإشارة، اشارة إلى أن إحسانهم وعملهم الصالح كانا سبباً في حصولهم على الأجر المذكور.

أمّا المكافأتان الثانية والثّالثة اللتان يمنحهما البارئ عزّ وجلّ للمصدقين، فيقول القرآن المجيد بشأنهما: (ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون)[3].

كم هي عبارة جميلة ولطيفة! فمن جانب يدعون الله سبحانه وتعالى ليكّفر عنهم أسوأ ما عملوا بظلّ لطفه، ويطهرهم من تلك البقع السوداء بماء التوبة، ومن جهة أُخرى يدعون الله ليجعل أفضل وأحسن أعمالهم معياراً للمكافأة، وأن يجعل بقية أعمالهم ضمن ذلك العمل.

إنّ ما يتّضح من الآيات الكريمة هو أنّ الله استجاب لدعواهم، عندما غفر لهم وعفا عن أسوأ أعمالهم، وجعل أفضل الأعمال معياراً للمكافأة.

3. لمن يرغب الاطلاع أكثر عليه مراجعة كتاب إحقاق الحق، المجلد الثّالث، الصحفة 177 فما بعد، وكتاب المراجعات، الصفحة 64 (المراجعة 12).

من البديهي، عندما يشمل العفو الإلهي الزلّات الكبيرة، فإنّ الزلات الصغيرة أولى بالشمول، لأنّ الزلات الكبيرة هي التي تقلق الإنسان أكثر من أيّ شيء آخر، ولهذا السبب فإنّ المؤمنين كثيراً ما يفكرون بها. وثمة سؤال يطرح نفسه هنا: إذا كانت الآيات السابقة تخص الأنبياء والمؤمنين من أتباعهم، فكيف اقترف هؤلاء تلك الزلات الكبيرة؟

الجواب على هذا السؤال يتّضح من خلال الانتباه إلى أنّه عندما ينسب عمل ما إلى مجموعة، فهذا لا يعني أنّ الجميع قاموا بذلك العمل، وإنّما يكفي أن تقوم به مجموعة صغيرة منهم، فمثلا عندما نقول: إن بني العباس خلفوا رسول الله(ص) من دون أيّ حق، فإنّ هذا لا يعني أنّ الكل اعتلوا كرسي الخلافة، وإنّما مجموعة منهم.

الآية المذكورة أعلاه تبيّن أنّ مجموعة من حملة الرسالة وأتباع نهجهم كانوا قد ارتكبوا بعض الأخطاء والزلّات، وأنّ البارئ عزّ وجلّ صفح عنهم وغفر لهم بسبب أعمالهم الصالحة والحسنة. على أيّ حال فإنّ ذكر الغفران والصفح قبل ذكر الثواب، يعود إلى هذا السبب، وهو أنّ عليهم في البداية أن يغتسلوا ويتطهروا، ومن ثمّ الورود إلى مقام القرب الالهي. يجب عليهم في البداية أن يريحوا أنفسهم من العذاب الإلهي كي يتلذذوا بنعم الجنّة.

مسألة:

الكثير من المفسّرين المسلمين من الشيعة والسنة نقلوا الرّواية التالية بشأن تفسير هذه الآية، وهي أنّ النّبي(ص) هو المقصود في (والذي جاء بالصدق) وأن الإمام علي(ع) هو المقصود في (صدّق به).

المفسّـر الإسلامي الكبير العلاّمة «الطبرسـي» نقل ذلك في تفسيره (مجمع البيان) عـن أهل البيت الأطهـار، ونقلها كذلك أبو الفتوح الرازي في تفسـير (روح الجنان) عن نفس المصـدر السـابق. كما نقلت مجموعة من المفسّـرين السـنة ذلك عن أبي هريرة نقلا عن رسول الله(ص)، وعن طرق اُخرى، ومن جملة من نقله العلاّمة ابن المغازلي في (المناقب) و(العلاّمة الگنجي) في (كفاية الطالب) والقرطبي في تفسيره والعلاّمة السيوطي في (الدر المنثور) وكذلك (الألوسي) في (روح المعاني)[4].

ومثلما أشـرنا من قبل فإنّ نقل مثل هذه التفاسير هو بيان أوضح المصاديق، ومن دون أيّ شـكّ فإنّ الإمام عليّ(ع) يقف في مقدمة الصفّ الأوّل لأتباع النّبي(ص) والمصدّقين به، وإنّه هو أول من صدّق برسول الله(ص)، ولا يوجد أحد من العلماء من ينكر هذه الحقيقة.

والاعتراض الوحيد الذي صـدر عن بعض المفسّـرين هـو أنّ الإمام علي(ع) آمن بالرّسـول وكان عمره مـا بين (10) إلى (12) عاماً، وأنّـه لم يكن مكلّفاً في هذا السّن ولم يبلغ بعد سنّ الحلم.

هـذا الـكلام عجيب جدّاً، فكيف يمكن أن يكون مثل هذا الاعتراض صـحيحاً، في الوقـت الذي قبل فيه رسـول الله(ص) إسـلام علـي(ع)، وقال لـه بأنّه (وزيره) و(وصيه) وأكّد مراراً وتكراراً في كلماته على أنّ علياً هو (أول المؤمنين) أو (أوّلكم إسـلاماً) وقد أوردنا في نهاية الآية (10) من سـورة التوبة أدلة متعددة من كتب علماء أهل السنة وبصورة مفصلة.

4. تفسير الكشاف ومجمع البيان وأبو الفتوح الرازي وفي ظلال مع اختلافات جزئية.

الآيتـــــــــــان 36 - 37

أَلَيْسَ اللّٰهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللّٰهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(36) وَ مَن يَهْدِ اللّٰهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللّٰهُ بِعَزِيزٍ ذِى انْتِقَامٍ(37)

سبب النّزول

الكثير من المفسّرين قالوا: إنّ مشركي قريش كانوا يخوفون رسول الله(ص) من آلهتهم ويحذرونه من غضبها على أثر وصفه تلك الأوثان بأوصاف مزرية، ويوعدونه بأنّه إن لم يسكت عنها فستصيبه بالأذى، وللرد على كلامهم نزلت الآية المذكورة أعلاه[5].

والبعض قال: عندما عزم خالد على كسر العزى بأمر من النّبي(ص) قال المشركون: إياك يا خالد فبأسها شديد. فضرب خالد أنفها بالفأس وهشمها وقال: كفرانك يا عزى لا سبحانك، سبحان من أهانك، إنّي رأيت الله قد أهانك[6].

ولكن قصة خالد هذه التي كانت بعد فتح مكّة كما يبدو، لا يمكن أن تكون سبباً لنزول الآية لأنّ كلّ سورة الزمر (مكية) ولهذا لعلها من قبيل التطابق.

5. مجمع البيان ذيل آيات البحث (هذه الرواية وردت أيضاً في الكشاف والقرطبي وبصورة مختصرة).
6. يقول الراغب في مفرداته: كلمة (نقمة) تعني العقوبة والجزاء.

التّفسير

إن الله كـــــــاف!

تتمة لتهديدات البارئ عزّو جلّ التي وردت في الآيات السـابقة للمشركين، والوعد التـي لأنبيائه، تتطرق الآية الأولى في بحثنا لتهديد الكفّار (أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه).

إن قـدرة البـارئ عزّ وجلّ أقوى وأعظم من كلّ القـدرات الأُخرى، وهو الذي يعلم بكلّ احتياجات ومشكلات عباده، والذي هو رحيم بهم غاية الرحمة واللطف، كيف يترك عباده المؤمنين لوحدهم أمام أعاصير الحوادث وعدوان بعض الأعداء؟

ومع أن سـبب نزول هذه الآية -طبقاً لما جـاء في الرّوايات التي ذكرناها- هو للرد على التخويف والتهديد بغضب الأصنام، لكن معنى الآية أوسع، ويتّسع لكلّ تهديد يهدد به الإنسان بما هو دون الله.

علـى أية حال، فإنّ في هذه الآية بشـرى لكلّ السـائرين في طريـق الحقّ والمؤمنين الحقيقيين، خاصّـة أُولئك الذين يعيشـون أقلية في بعض المجتمعات، والمحاطين بمختلف أشكال التهديد من كلّ جانب.

الآية تعطيهم الأمل والثبات، وتملأ أرواحهم بالنشاط وتجعل خطواتهم ثابتة، وتمحو الآثار النفسـية لصـدمات تهديدات الأعداء، نعم فعندما يكون الله معنا فلا نخاف غيره، وإن انفصلنا وابتعدنا عنه فسيكون كلّ شيء بالنسبة لنا رهيباً ومخيفاً.

وكتتمة للآية السابقة والآية التالية اشارة إلى مسألة (الهداية) و(الضلالة) وتقسم الناس إلى قسمين: (ضالين) و(مهتدين) وكل هذا من الله سبحانه وتعالى، كي تبيّن أنّ جميع العباد محتاجون لرحمته، ومن دون إرادته لا يحدث شيء في هذا العالم، قال تعالى: (ومن يظلل الله فما له من هاد).

(ومن يهد الله فما له من مضل).

ومن البديهي أنّ الضلالة لا تأتي من دون سبب، وكذلك الهداية بل إن كلّ حالة منهما هي استمرار لإرادة الإنسان وجهوده، فالذي يضع قدمه في طريق الضلال، ويبذل أقصى جهوده من أجل إطفاء نور الحقّ، ولا يترك أدنى فرصة تتاح له لخداع الآخرين وإضلالهم، فمن البديهي أنّ الله سيضله، ولا يكتفي بعدم توفيقه وحسب، وإنّما يعطّل قوى الإدراك والتشخيص التي لديه عن العمل، ويوصد قلبه الأقفال ويغطي عينيه بالحجب، وهذه هي نتيجة الأعمال التي ارتكبها.

أمّا الذين يعزمون على السير إلى الله سبحانه وتعالى بنوايا خالصة، ويخطون الخطوات الأولى في هذا المسير، فإنّ نور الهداية الإلهية يشعّ لينير لهم الطريق، وتهبّ ملائكة الرحمن لمساعدتهم ولتطهير قلوبهم من وساوس الشياطين، فتكون إرادتهم قوية، وخطواتهم ثابتة، واللطف الإلهي ينقذهم من الزلّات.

وقد وردت آيات كثيرة في القرآن المجيد كشاهد على تلك القضايا، وما أشدّ جهل الذين فصلوا بين مثل هذه الآيات وبقية آيات القرآن واعتبروها شاهداً على ما

ورد في المذهب الجبري، وكأنّهم لا يعلمون أن آيات القرآن تفسّر إحداها الأُخرى. بـل إن القرآن الكريم يقول في نهاية هذه الآية: (أليس الله بعزيز ذي انتقام) وهو خير شاهد على هذا المعنى.

وكمـا هو معروف فإنّ الانتقام الإلهي هو بمعنى الجزاء على الأعمال المنكرة التي اقترفها الإنسـان، وهذا يشـير إلى أن إضلاله سـبحانه وتعالى للإنسان هو بحدّ ذاتـه نوع من أنواع الجزاء وردّ فعل لأعمال الإنسـان نفسـه، وبالطبع فإن هدايته سبحانه وتعالى للإنسان هي بحد ذاتها نوع من أنواع الثواب، وهي ردّ فعل للأعمال الصالحة والخالصة التي يقوم بها الإنسان[7].

بحثـــــــــان

1 - الهداية والإضلال من الله:

«الهداية»: في اللغة تعني التوجيه والإرشـاد بلطف ودقّة[8]، وتنقسـم إلى قسـمين (بيـان الطريق)، و(الإيصـال إلى المطلـوب) وبعبارة أُخرى (هداية تشـريعية) و(هداية تكوينية)[9].

7. «مفردات» مادة (هدى).

8. نلفت الانتباه إلى أن الهداية التكوينية هنا قد استخدمت بمعناها الواسع، حيث تشمل كلّ أشكال الهداية عدا الهداية التي تأتي عن طريق بيان الشرائع والتوجيه إلى الطريق.

9. ومنها ما ورد في السور والآيات التالية (فاطر.8) و(الزمر.23) و(المدثر.31) و(البقرة.272)و(الأنعام.88) و(يونس.25) و(الرعد.27) و(إبراهيم.4).

ولتوضيح ذلك نقول: إنّ الإنسان يصف أحياناً الطريق للسائل بدقّة ولطف وعناية ويترك السائل معتمداً على الوصف في قطع الطريق والوصول إلى المقصد المطلوب. وأحياناً أُخرى يصف الإنسان الطريق للسائل ومن ثمّ يمسك بيده ليوصله إلى المكان المقصود.

وبعبارة أُخرى: الشخص المجيب في الحالة الأولى يوضّح القانون وشرائط سلوك الطريق للشخص السائل كي يعتمد الأخير على نفسه في الموصول إلى المقصد والهدف، أمّا في الحالة الثانية، فإضافة إلى ما جاء في الحالة الأولى، فإنّ الشخص المجيب يهيئ مستلزمات السفر، ويزيل الموانع الموجود، ويحلّ المشكلات، إضافة إلى أنّه يرافق الشخص السائل في سلوك الطريق حتّى الوصول إلى مقصده النهائي لحمايته والحفاظ عليه.

و(الإضلال) هو النقطة المقابلة لـ (الهداية).

فلو ألقينا نظرة عامة على آيات القرآن لاتضح لنا -بصورة جيدة- أنّ القرآن يعتبر أنّ الظلالة والهداية من الله، أي أن الاثنين ينسبان إلى الله، ولو أردنا أن نعدد كل الآيات التي تتحدث بهذا الخصوص، لطال الحديث كثيراً، ولكن نكتفي بذكر ما جاء في الآية(213) من سورة البقرة: (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) وفي الآية(93) من سورة النحل: (ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء). وأمثال هذه الآيات -الخاصة بالهداية أو الضلال أو أحدهما- ورد في آيات كثيرة من القرآن المجيد[10].

10. البقرة، 258.

وأكـثر من هـذا، فقد جاء في بعض الآيـات نفي قدرة الرّسـول الأكرم (ص) على الهداية وتحديد القدرة على الهداية بالله سبحانه وتعالى، كما ورد في الآية (56) من سـورة القصـص: (إنّك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشـاء). وفي الآية (272) من سورة البقرة: (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء).

الدراسة السطحية لهذه الآيات وعدم إدراك معانيها العميقة أدى إلى زيغ البعض خلال تفسـيرهم لهـا وانحرافهم عن طريـق الهداية ووقوعهـم في فخاخ المذهب الجبري، حتّى أنّ بعض المفسّرين المعروفين لم ينجوا من هذا الخطأ الكبير، حيث اعتـبروا الضـلالة والهداية وفي كلّ مراحلها أمراً جبريـاً، والأدهى من ذلك أنّهم أنكروا أصل العدالة كي لا ينتقض رأيهم، لأنّ هناك تناقضاً واضحاً بين عقيدتهم وبين مسـألة العدالـة والحكمة الإلهية، فاذا كنا أساسـاً نقـول بالجبر، فلا يبقى هناك داع للتكليف والمسؤولية وإرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية.

أمّا المعتقدون بمذهب الاختيار وأن الإنسان مخير في هذه الدنيا وأن العقل السليم لا يقبل مطلقاً بأن الله سبحانه وتعالى يجبر مجموعة من الناس على سلوك سبيل الضـلال ثمّ يعاقبهم علـى عملهم ذلك، أو أنّه يهدي مجموعـة أُخرى إجبارياً ثم يمنحهـا -من دون أي سـبب- المكافأة والثواب، ويفضـلها علـى الآخرين لأدائها عملا كانت قد أجبرت على القيام به فهؤلاء انتخبوا لأنفسهم تفاسير أُخرى لهذه الآيات، كان أهمها:

1 - إنّ المراد من الهداية الإلهية هي الهداية التشريعية التي تأتي عن طريق الوحي والكتب السـماوية وإرسال الأنبياء والأوصـياء، إضافة إلى إدراك العقل والشعور، أمّـا انتهاج السـبيل فهو في عهدة الإنسـان في جميع مراحل حياتـه. وبالطبع فإنّ

هذا التّفسير يتطابق مع الكثير من الآيات القرآنية التي تتناول موضوع الهداية، ولكن هناك آيات كثيرة أُخرى لا يمكن تطابقها مع هذا التّفسير، لأنّ فيها نوعاً من الصراحة فيما يخص (الهداية التكوينية) و(الإيصال إلى الهدف) كماورد في الآية(56) من سورة القصص: (إنّك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء). في حين أنّنا نعرف أنّ الهداية التشريعية والتوجيه نحو الطريق الصحيح، هي الواجب الرئيسي للأنبياء.

2 – مجموعة أُخرى من المفسّرين فسّروا الهداية والضلال اللذين لهما هنا طابع تكويني على أنّهما الثواب والعقاب، والإرشاد إلى طريق الجنّة والنّار، وقالوا بأن البارئ عزّ وجلّ يهدي المؤمنين إلى طريق الجنّة، ويضل عنها الكافرين.

إن هذا المعنى صحيح بالنسبة لعدّة آيات فقط، ولكنّه لا يتطابق مع آيات أُخرى تتحدث عن الهداية والإضلال بصورة مطلقة.

3 – مجموعة ثالثة قالت: إنّ المراد من الهداية هو تهيئة الأسباب والمقدمات التي توصل إلى الغرض المطلوب، والمراد من الضلالة هو عدم توفير تلك الأسباب والمقدمات أو حجبها عنهم، والتي عبّر عنها البعض بـ (التوفيق) و(سلب التوفيق) لأنّ التوفيق يعني تهيئة المقدمات للوصول إلى الهدف، وسلب التوفيق يعني عدم تهيئة تلك المقدمات.

ووفقاً لهذا فإنّ الهداية الإلهية لا تعني أنّ البارئ عزّ وجلّ يجبر الإنسان على الوصول إلى الهدف، وإنّما يضع الوسائل المطلوبة للوصول تحت تصرفهم

واختيارهم، وعلى سبيل المثال، وجود مربّ جيد، بيئة سالمة للتربية، أصدقاء وجلساء صالحين، وأمثالها، كلها من المقدمات، ورغم وجود هذه الأُمور فإنّه لا يجبر الإنسان على سلوك سبيل الهداية.

وثمّة سؤال يبقى مطروحاً، وهو: لماذا يشمل التوفيق مجموعة دون اُخرى؟

المنحازون لهذا التّفسير عليهم أن ينتبهوا إلى حكمة أفعال البارئ عزّ وجلّ ويعطوا دلائل لهذا الاختلاف، فمثلا يقولون: إنّ عمل الخير هو سبب التوفيق الإلهي، وتنفيذ الأعمال الشريرة تسلب التوفيق من الإنسان.

وعلى أيّ حال فإنّ هذا التّفسير جيد ولكن الموضوع ما زال أعمق من هذا.

4 - إنّ أدق تفسير يتناسب مع كلّ آيات الهداية والضلال، ويفسرها جميعاً بصورة جيدة من دون أن يتعارض أدنى تعارض مع المعنى الظاهري، وهو أنّ الهداية التشريعية التي تعني (إراءة الطريق) لها خاصية عامّة وشاملة، ولا توجد فيها أي قيود وشروط، كما ورد في الآية (الثالثة) من سورة الدهر: (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) وفي الآية (51) من سورة آل عمران: (وإنّك لتهدي إلى صراط مستقيم) ومن البديهي أن دعوة الأنبياء هي مظهر دعوة الله تعالى. لأن كلّ ما عند النّبي هو من الله. وبالنسبة إلى مجموعة من المنحرفين والمشركين ورد في الآية (23) من سورة النجم: (ولقد جاءهم من ربّهم الهدى).

أمّا الهداية التكوينية فتعني الإيصال إلى الغرض المطلوب، والأخذ بيد الإنسان في

كلّ منعطفـات الطريق، وحفظـه وحمايته من كلّ الأخطار التـي قد تواجهه في تلك المنعطفات حتى إيصـاله إلى سـاحل النجاة، وهي أي -الهداية التكوينية- موضـع بحـث الكثير من آيات القرآن الأُخرى التي لا يمكن تقييدها بأية شـروط، فالهداية هـذه تخصّ مجموعة ذكرت أوصـافهم في القرآن، أمّا الضـلال الـذي هو النقطة المقابلة للهداية فإنه يخص مجموعة أُخرى ذكرت أوصافهم أيضاً في القرآن الكريم.

ورغم وجود بعض الآيات التي تتحدث عن الهداية والإضـلال بصـورة مطلقة، إلا أن هناك الكثير من الآيات الأُخرى التي تبيّن -بدقة- محدوديتهما، وعندما تضع الآيات (المطلقة) إلى جانب (المحدودة) يتّضح المعنى بصورة كاملة، ولا يبقى أي غموض أو إبهام في معنى الآيات، كما أنّها -أي الآيات- تؤّكد بشـدة على مسـألة الاختيار وحرية الإرادة عند الإنسان ولا تتعارض معهما.

الآن يجب الانتباه إلى التوضيح التالي:

القـرآن المجيد يقـول في إحدى آياته: (يضـل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضـل بـه إلاّ الفاسـقين) وفي مكان آخـر يقول البارئ عـزّ وجـلّ: (واللّه لا يهدي القوم الظالمين)[11] وهذا يبيّن أن الظلم مقدمة للظلال. ومن هنا يتّضح أن الفسق، أي عدم إطاعة أوامر البارئ تعالى وهو مصدر الضلال. وفي موضع آخر نقرأ: (واللّه لا يهدي القوم الكافرين)[12]، وهنا اعتبر الكفر هو الذي يهيئ أرضية الضلال.

11. البقرة، 264.
12. الزمر، 3.

وقـد ورد في آية أُخـرى: (إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار)[13] يعني أنّ الكذب والكفر هما مقدمة الضـلال. والآية التالية تقول: (إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب)[14] أي أن الإسراف والكذب يسببان الضلالة.

وبالطبـع، فـإنّ ما أوردنـاه كان جزءاً يسـيراً من آيـات القرآن التـي تتناول هذا الموضـوع، فبعض الآيات وردت مرات عديدة في سـور القرآن المختلفة وهي تحمل المعـاني والمفاهيـم. إن مـا يمكن اسـتنتاجه هو أنّ القـرآن الكريم يؤكّـد على أنّ الضـلالة الإلهية تشـمل كلّ مـن توفرت فيه هذه الصـفات (الكفـر) و(الظلم) و(الفسـق) و(الكذب). (الإسـراف) فهل أن الضـلالة غير لائقة بمن تتوفر فيه مثل هذه الصفات!

وبعبارة أُخرى: هل ينجو قلب من يتصـف بتلك الصـفات القبيحة، من الغرق في الظلمات والحجب؟!

وبعبارة أُخرى أوضـح: أنّ لهذه الأعمال والصـفات آثاراً تلاحق الإنسـان شاء أم أبى، إذ ترمي بسـتائرها على عينيه وأذنيه وعقله، وتؤدي به إلى الضـلال، ولكون خصوصيات كلّ الأشياء وتأثيرات كلّ الأسباب إنّما هي بأمر من الله، ومن الممكن أيضاً أن ينسـب الإضلال إليه سبحانه وتعالى في جميع هذه الموارد، وهذه النسبة هي أساس اختيار الإنسان وحرية إرادته.

13. غافر، 28.
14. المائدة، الآية 16.

هذا فيما يتعلق بالضـلالة، أمّا فيما يخصـ الهداية، فقد وردت في القرآن المجيد شـروط وأوصـاف تبيّن أنّ الهداية لا تقع من دون سـبب وخلاف الحكمة الإلهية. وقد استعرضت الآيات التالية بعض الصفات التي تجعل الإنسان مستحقاً للهداية ومحاطـاً باللطف الإلهي، منها: (يهدي به الله من اتبع رضـوانه سـبل الاسـلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم)[15].

إذن فاتباع أمر الله، وكسب مرضاته يهيئان الأرضية للهداية الإلهية.

وفي مكان آخر نقرأ: (إن الله يضل من يشاء ويهدي الله من أناب)[16] إذن فالتوبة والإنابة تجعلان الإنسان مستحقاً للهداية.

وفي آية أُخرى ورد: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)[17] فالجهاد، وخاصة (الجهاد الخالص في سبيل الله) هو من الشروط الرئيسة للهداية.

وأخـيراً نقرأ في آية أُخرى: (والذين اهتـدوا زادهم هدى)[18] أي أن قطع مقدار من طريق الهداية هو شرط للاستمرار فيه بلطف البارئ عزّ وجلّ.

نسـتنتج من ذلك أنّه لو لم تكن هناك توبة وإنابة من العبد، ولا اتباع لأوامر الله، ولا

15. الرعد، الآية 27.
16. العنكبوت، الآية 69.
17. محمّد، الآية 17.
18. المفسّرون واللغويون يفسّرون (أفرأيتم) بأنّها تعطي معنى (أخبروني) في الوقت الذي لا يوجد فيه أي مانع من تفسيرها بمعناها الأصلي وهو رؤية العين أو القلب.

جهاد في سبيله ولا بذل الجهد وقطع مقدار من طريق الحق، فإن اللطف الإلهي لا يشمل ذلك العبد، وسوف لا يمسك البارئ بيده لإيصاله إلى الغرض المطلوب.

فهل أنّ شمول هؤلاء الذين يتحلون بهذه الصفات بالهداية هو أمر عبث، أو أنّه دليل على هدايتهم بالإجبار؟ من الملاحظ أنّ آيات القرآن الكريم في هذا المجال واضحة جدّاً ومعناها ظاهر، ولكن الذين عجزوا عن الخروج بنتيجة صحيحة من آيات الهداية والضلال ابتلوا بمثل هذا الابتلاء و(لأنّهم لم يشاهدوا الحقيقة فقد ساروا في طيق الخيال).

إذن يجب القول بأنّهم هم الذين اختاروا لأنفسهم سبيل (الضلال).

على أي حال، فإنّ المشيئة الإلهية في آيات الهداية والضلال لم تأت عبثاً ومن دون أي حكمة، وإنّما تتمّ بشرائط خاصّة، بحيث تبيّن تطابق حكمة البارئ عزّ وجلّ مع ذلك الأمر.

2 - الاتكال على لطف الله

يعتبر الإنسان كالقشة الضعيفة في مهب الرياح العاتية التي تهب هنا وهناك في كلّ لحظة من الزمان، ويمكن أن تتعلق هذه القشة بورقة أو غصن مكسور تأخذه الرياح أيضاً مع تلك القشة الضعيفة، وترميهما جانباً، وحتى إذا تمكنت يد الإنسان من الإمساك بشجرة كبيرة فإنّ الأعاصير والرياح العاتية تقتلع أحياناً تلك الشجرة

من جذورها، أمّا إذا لجأ الإنســان إلى جبل عظيم فإن أعتى الأعاصــير لا تتمكن من أن تزحزح ذلك الجبل ولو بمقدار رأس إبرة من مكانه.

الايمــان باللّه بمثابة هذا الجبل والاعتماد والاتــكال على غير اللّه بمثابة الاعتماد على الأشياء الواهية، ولهذا السبب يقول البارئ عزّ وجلّ في الآيات المذكورة أعلاه: (أليس اللّه بكاف عبده) الاعتقاد والإيمان بما جاء في هذه الآية يضــيف للإنسان شــجاعة واعتماداً على النفس، وتطمئن خواطره وتهدئها، كي يصمد ويثبت أمام الحوادث كالجبل، ولا يخاف حشــود الأعداء، ولا يستوحش من قلّة عدد أتباعه أو أصحابه،، ولا تعبث المشاكل الصعبة بروحه الهادئة المستقرة، وقد ورد في الحديث «المؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف»

الآيـــــــــــات 38 - 40

وَ لَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ إِنْ أَرَدَنِى اللّهُ بِضُـرٍّ هَلْ هُنَّ كَشِـفَتُ ضُـرِّهِ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حسبِي اللّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ(38) قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(39) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ(40)

التّفسير

هل إن آلهتكم قادرة على حل مشاكلكم؟

الآيات السـابقة تحدثت عن العقائد المنحرفة للمشـركين والعواقب الوخيمة التي حلّـت بهـم، أمّا آيات بحثنا هذا فإنّها تسـتعرض دلائل التوحيـد كي تكمل البحث السـابق بالأدلـة، كما تحدثت الآيات السـابقة عن دعـم البارئ عزّ وجـلّ لعباده وكفاية هذا الدعم، والآيات أعلاه تتابع هذه المسألة مع ذكر الدليل.

في البداية تقول الآية: (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله).

العقـل والوجـدان لا يقبلان أن يكون هذا العالم الكبير الواسـع بـكل هذه العظمة مخلوق من قبل بعض الكائنات الأرضـية، فكيف يمكن للعقل أن يقبل أنّ الأصـنام التـي لا روح فيهـا ولا عقل ولا شـعور هـي التي خلقت هـذا العالم، وبهذا الشـكل

فإنّ القران يحاكم أُولئك إلى عقولهم وشعورهم وفطرتهم، كي يثبّت أول أسس التوحيد في قلوبهم، وهي مسألة خلق السماوات والأرض.

وفي المرحلة التالية تتحدث الآيات عن مسألة الربح والخسارة، وعن مدى تأثيرها على نفع أو ضرر الإنسان، كي تثبت لهم انّ الأصنام لا دور لها في هذا المجال، وتضيف (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هنّ كاشفات ضرّه أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته)[1].

والآن بعد أن اتّضح أنّ الأصنام ليس بإمكانها أن تخلق شيئاً ولا باستطاعتها أن تتدخل في ربح الإنسان وخسارته، إذن فلم نعبدها ونترك الخالق الأصلي لهذا الكون، والذي له اليد الطولى في كلّ ربح وخسارة، ونمد أيدينا إلى هذه الموجودات الجامدة التي لا قيمة لها ولا شعور؟ وحتى إذا كانت الآلهة ممن يمتلك الشعور كالجن أو الملائكة التي تعبد من قبل بعض المشركين، فإنّ مثل هذا الإله ليس بخالق ولا يمكنه أن يتدخل في ربح الإنسان وخسارته، وكنتيجة نهائية وشاملة يقول البارئ عزّ وجلّ (قل حسبي الله وعليه يتوكل المتوكلون).

آيات القرآن المجيد أكّدت -ولعدّة مرات- على أنّ المشركين يعتقدون بأنّ الله سبحانه وتعالى هو خالق السموات والأرض[2]. وهذا الأمر يبيّن أن الموضوع كان بالنسبة

1. العنكبوت (61) و(63)، لقمان (31)، الزخرف(9) و(87).

2. ما هو أصل كلمة (مكانة) ؟ وماذا تعني؟ أغلب المفسّرين واللغويين قالوا: إنّها تعني المكان والمنزلة، وهي من مادة (كون) ولأنّها تستخدم كثيراً بمعنى المكان لهذا يتصور أنّ الميم فيها أصلية، ولذا أصبح جمع تكسيرها (أمكنة) أما صاحب (لسان العرب)، فقد ذكر أنّ أصلها (مكنة) و(تمكن) والتي تعني القدرة والاستطاعة. وعلى أية حال فإنّ مفهوم الآية يكون في الحالة الأولى: ابقوا على مواقفكم، وفي الحالة الثانية: ابذلوا كلّ ما لديكم من جهد وطاقة.

للمشركين من المسلّمات، وهذا أفضل دليل على بطلان الشرك، لأن توحيد خالق الكون والاعتراف بمالكيته وربوبيته أفضل دليل على (توحيد المعبود) ومن كلّ هذا نخلص إلى أن التوكل لا يكون إلاّ على الله مع صرف النظر عن عبادة غيره.

وإذا أمعنا النظر في المواجهة التي حدثت بين إبراهيم محطم الأصنام والطاغية نمرود الذي ادعى الربوبية والقدرة على إحياء الناس وإماتتهم، والذي انبهت وتحير في كيفية تنفيذ طلب إبراهيم(ع) عندما طلب منه أن يجعل الشمس تشرق من المغرب إن كان صادقاً في ادعاءاته، مثل هذه الادعاءات التي يندر وجودها حتى في أوساط عبدة الأصنام، لا يمكن أن تصدر إلا من أفراد ذوي عقول ضعيفة ومغرورة وبلهاء كعقل نمرود.

والملفت للنظر أنّ الضمير العائد على تلك الآلهة الكاذبة في هذه الآيات، إنّما جاء بصيغة جمع المؤنث (هن -كاشفات- ممسكات) وذلك يعود لأسباب:

أوّلا: إنّ الأصنام المعروفة عند العرب كانت تسمى بأسماء مؤنثة اللات ومناة والعزى).

ثانياً: يريد البارئ عزّ وجلّ بهذا الكلام تجسيد ضعف هذه الآلهة أمامهم، وطبقاً لمعتقداتهم، لأنّهم كانوا يعتقدون بضعف وعجز الإناث.

ثالثاً: لأنّ هناك الكثير من الآلهة لا روح فيها، وصيغة جمع المؤنث تستخدم عادة بالنسبة إلى تلك الموجودات الجامدة، لذا فقد استفيد منها في آيات بحثنا هذا.

كما يجب الالتفات إلى أنّ عبارة (عليه يتوكل المتوكلون) تعطي معنى الحصر بسبب تقدم كلمة (عليه) وتعني أن المتوكلين يتوكلون عليه فقط.

الآية التالية تخاطب أُولئك الذين لم يستسلموا لمنطق العقل والوجدان بتهديد إلهي مؤثر، إذ تقول: (قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إنّي عامل فسوف تعلمون)[3].

ستعلمون بمن سيحل عذاب الدنيا المخزي والعذاب الخالد في الآخرة (من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم). وبهذا الشكل فإنّ آخر كلام يقال لأُولئك هو: إمّا أن تستسلموا لمنطق العقل والشعور وتستجيبوا لنداء الوجدان، أو أن تنتظروا عذابين سيحلان بكم، أحدهما في الدنيا وهو الذي سيخزيكم ويفضحكم، والثّاني في الآخرة وهو عذاب دائم خالد، وهذا العذاب أنتم اعددتموه لأنفسكم، وأشعلتم النيران في الحطب الذي جمعتموه بأيديكم.

3. «بالحق»: من الممكن أن تكون حالا لـ (كتاب) أو للفاعل في (أنزلناه)، مع أنّ المعنى الأوّل أنسب، ولذا فإنّ مفهوم الآية يكون: (إنا أنزلنا عليك القرآن مترافقاً بالحق).

الآيـــــــــــات 41 - 44

إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَبَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِـهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَـا وَ مَآ أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ(41) اللّهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِـكُ التي قَضَـى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الأُخْرَى إِلى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِـى ذَلِـكَ لآيَـتٍ لِّقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(42) أَمِ اتَّخَـذُواْ مِنْ دُونِ اللّهِ شُـفَعَآءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُواْ لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَ لاَ يَعْقِلُونَ(43) قُلْ لِلّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعاً لَّهُ مُلْكُ السَّمَـوَتِ وَ الأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(44)

التّفسير

الله سبحانه يتوفى الأنفس:

بعد ذكر دلائل التوحيد، وبيان مصـير المشركين والموحدين، تبيّن الآية الأُولى –في هذا البحث– حقيقة مفادها أن قبول ما جاء في كتاب الله أو عدم قبوله إنّما يعود بالفائدة أو الضـرر عليكم، وإن كان رسول الله(ص) يصرّ عليكم في هذا المجال، فإنّـه لم يكن يبتغي جني الأرباح مـن وراء ذلك، وإنّما كان يؤدي واجباً إلهياً، (إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحقّ)[1].

وتضيف الآية (فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنّما يضل عليها).

1. كلمة (توفى) تعني قبض الشيء بالتمام، كلمة (أنفس) تعني الأرواح. وكلمة (منام) لها معنى مصدري وتعني النوم.

على أي حال، فإنك لست مكلفاً بإدخال الحق إلى قلوبهم بالإجبار، وإنّما عليك إبلاغهم وإنذارهم فقط (وما أنت عليهم بوكيل).

هذه القاعدة أنّ كلّ من اتبع طريق الحق عاد بالربح على نفسه، ومن اتبع سبيل الضلال عاد بالخسارة على نفسه، تكررت عدّة مرات في آيات القرآن الكريم، كما أنّها تأكيد على حقيقة أنّ الله غير محتاج لإيمان عباده ولا يخاف من كفرهم،وكذلك رسوله، وإنّه لم يدع عباده إلى عبادته كي يجني من وراء ذلك الأرباح، وإنّما ليجود على عباده.

قوله تعالى: (وما أنت عليهم بوكيل) -التي وردت فيها كلمة (وكيل) بمعنى الشخص المكلف بهداية الضالين وجعلهم يؤمنون بالله- وردت عدّة مرات في آيات القرآن، وبنفس التعبير أو ما يشابهه، والغرض من تكرارها هو بيان أنّ الرّسول الأكرم(ص) ليس مسؤولا عن إيمان الناس، لأنّ أساس الإيمان لا يأتي عن طريق الإجبار، وإنّه مكلّف بإبلاغ الأمر الإلهي إلى الناس من دون أن يظهر أدنى تقصير أو عجز، فإمّا أن يستجيبوا لدعوته وإمّا أن يرفضوها.

ثمّ لتوضح أنّ الحياة والموت وكلّ شؤون الإنسان هي بيد الله سبحانه وتعالى، قالت الآية: (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها)[2].

وبهذا الشكل فإن (النوم) يعد شقيق (الموت) لكن بأحد أشكاله الضعيفة، أي

2. «أم»: هنا منقطعة وتعني (بل) ولو كانت متصلة، لكان يجب تقدير القسم الثّاني لها، وهذا خلاف الظاهر.

(أشـكال الموت)، لأن العلاقة بين الروح والجسـد تصـل إلى أدنى درجاتها أثناء النوم، وتقطع الكثير من العلاقات والوشائج بينهما.

وتضـيف الآية (فيمسك التي قضـى عليها الموت ويرسل الأُخرى إلى أجل مسمى) نعم (إنّ ذلك لآيات لقوم يتفكرون).

من هذه الآية يمكن استنتاج عدة أُمور:

1 - إنّ الإنسـان عبـارة عن روح وجسـد، والـروح هي جوهر غير مـادي، يرتبط بالجسد فيبعث فيه النور والحياة.

2 - عنـد الموت يقطع الله العلاقة بين الروح والجسـد، ويذهـب بالروح إلى عالم الأرواح، وعند النوم يخرج البارئ عزّ وجلّ الروح والجسد، ولكن ليس بتلك الحالة التي تقطع فيها العلاقات بصـورة كاملة. ووفقاً لهـذا فإنّ الروح لها ثلاث حالات بالنسـبة للجسـد، وهي: ارتباط كامل (حالـة الحياة واليقظـة) وارتباط ناقص (حالة النوم) وقطع الارتباط بصورة كاملة (حالة الموت).

3 - النوم هو أحد الصور الضعيفة (للموت)، و(الموت) هو نموذج كامل (للنوم).

4 - النوم هو أحد دلائل اسـتقلال وأصـالة الروح، خاصـة عندمـا يرافق بالرؤيا الصادقة التي توضح المعنى أكثر.

5 - إنّ العلاقة التي تربط بين الروح والجسـد تضـعف أثناء النوم، وأحياناً تقطع تماماً ممّا يؤدي إلى عدم يقظة النائم إلى الأبد، أي موته.

6 - إنّ الإنسان عندما ينام في كلّ ليلة يشعر وكأنّه وصل إلى أعتاب الموت، وهذا الشعور بحد ذاته درساً يمكن الاعتبار منه، وهو كاف لإيقاظ الإنسان من غفلته.

7 - كلّ هذه الأُمور تجري بقدرة البارئ عزّ وجلّ، وإن كان قد ورد في بعض الآيات ما يشير إلى أنّ ملك الموت هو الذي يقبض الأرواح، فهذا لا يعني سوى أنّه ينفّذ أوامر البارئ عزّ وجلّ.

وعلى أية حال، فإنّ المراد من قوله تعالى: (إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) هو إثبات دلائل قدرة البارئ عزّ وجلّ، ومسألة الخلق، والمعاد، وضعف وعجز الإنسان مقابل إرادة الله عزّ وجلّ.

وبعد ما أصبحت -حاكمية- (الله) على وجود الإنسان وتدبير أمره عن طريق نظام الحياة والموت والنوم واليقظة، أمراً مسلماً من خلال الآيات السابقة، تناولت الآية اللاحقة خطأ اعتقاد المشركين فيما يخص مسألة الشفاعة، كي تثبت لهم أنّ مالك الشفاعة هو مالك حياة وموت الإنسان، وليس الأصنام الجامدة التي لا شعور لها (أم اتخذوا من دون الله شفعاء)[3]. وكما هو معروف فإنّ إحدى الأعذار الواهية لعبدة الأوثان بشأن عبادتهم للأوثان، هي ما ورد في مطلع هذه السورة (ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى)[4]، إذ إنّهم كانوا يعدونها تماثيل وهياكل للملائكة للأرواح المقدسة، ويزعمون أنّ هذه الأحجار والأخشاب الميتة لها قدرة هائلة.

3. الزمر، 3.
4. عبارة (أولو كانوا لا يملكون شيئاً) فيها محذوف، والتقدير: (أيشفعون لكم ولو كانوا لا يملكون شيئاً).

ولكون الشفاعة تحصل من الشفيع الذي هو، أوّلا: يشعر ويدرك ويفهم، وثانياً: قدير ومالك وحكيم، فإن تتمة الآية تجيبهم (قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون)[5].

إذا كنتم تتخذون من الملائكة والأرواح المقدسة شفعاء لكم، فإنّهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، لأن كلّ ما عندهم هو من الله، وإذا كنتم تتخذون من الأصنام المصنوعة من الخشب والحجارة شفعاء لكم، فإنّهم علاوة على عدم امتلاكهم شيئاً لأنفسهم، فهم لا يمتلكون أدنى عقل أو شعور، فاتركوا هذه الأعذار، وعودوا إلى الذي يملك ويحكم كلّ هذا العالم، وإلى من إليه تنتهي كلّ الأمور.

لذا فإنّ الله جلّ وعلا يضيف في الآية التالية (قل لله الشفاعة جميعاً) لأنّه (له ملك السماوات والأرض ثمّ إليه ترجعون). وبهذا الشكل لم يبق لديهم شيء، لأنّ النظام المسيطر والحاكم على كلّ العالم يقول: لا شفاعة هناك ما لم يأذن البارئ عزّ وجلّ بذلك (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه)[6].

أو كما يقول بعض المفسّرين: إنّ حقيقة الشفاعة، هي التوسل بأسماء الله الحسنى، التوسل برحمته وغفرانه وستره، طبقاً لهذا فإنّ كل أشكال الشفاعة تعود في النهاية إلى ذاته المقدسة، إذن كيف يمكن طلب الشفاعة من غيره وبدون إذنه[7].

5. البقرة، 57.
6. الميزان، المجلد 17، الصفحة 286.
7. مجمع البيان ذيل آية البحث وتفسير الصافي. كلمة (روح) في هذه الرواية تعني (الروح الحيوانية) وعمل أجهزة الجسم الرئيسية، وكلمة (نفس) تعني روح الإنسان.

وبشـأن ارتبـاط عبارة (ثم إليه ترجعـون) بما قبلها، أظهر المفسّـرون عدّة آراء مختلفة منها:

1 – هذه العبارة إشارة إلى أنّ شفاعة البارئ عزّ وجلّ لا تقتصر على هذه الدنيا، وإنّما تتعداها إلى الشـفاعة في الآخرة، ولـذا يجب عدم اللجوء إلى غير الله لحل المشاكل ورفع المصائب كما كان يفعل المشركون.

2 – هذه العبارة هي دليل ثان على اختصـاص الشـفاعة بـالله، لأنّ الدليل الأوّل اعتمد على (مالكية) الله، وهنا تمّ الاعتماد على (عودة جميع الأشياء إليه).

3ـ هـذه الجملة هي بمثابة تهديد للمشـركين، إذ تقول لهم: إنّكم سـترجعون إلى الله، وستشاهدون نتيجة أفكاركم وأعمالكم السيئة والقبيحة.

كلّ هذه التفاسير مناسبة إلاّ أنّ التّفسيرين الأوّل والثّاني أنسب.

ملاحظتان

1 – عجائب عالم الرؤيا؟

ما هي حقيقة النوم؟ وما سبب ميل الإنسان إلى النوم؟

بهذا الشأن كتب العلماء أبحاثاً كثيرة:

فالبعض منهم قال: إنّه يأتي نتيجة انتقال جزء كبير من الدم الموجود في المخ إلى بقية أجزاء الجسم، ولذا فإنّ السبب هنا (فيزيائي).

والبعض الآخر يعتقد أنّ النشاط الإضافي للجسم يؤدي إلى تجمع مواد سامّة معينة في الجسم، وهذه الحالة تؤثر على الأنظمة العصبية وتدفع الإنسان إلى النوم، وتستمر هذه الحالة عند الإنسان حتى تتمّ تجزئة تلك السموم وامتصاصها من قبل الجسد، وبهذا يكون السبب هنا (كيميائي).

مجموعة أُخرى تقول: إن سبب النوم إنّما يعود لأسباب عصبية لأنّ هناك جهازاً عصبياً نشطاً في داخل مخ الإنسان، وهذا الجهاز هو مصدر الحركة المستمرة لبقية أعضاء الجسم، وهو يتوقف عن العمل إثر التعب الشديد الذي يصيبه فيحصل النوم.

النظريات المذكورة أعلاه عجزت عن إعطاء جواب مقنع فيما يخص مسألة النوم، رغم أنّنا لا يمكن أن ننكر تأثير هذه الأسباب ولو بمقدار ضئيل. نحن نعتقد أنّ التفكير المادي لعلماء اليوم هو السبب الرئيسي الذي يكمن وراء عجزهم عن إعطاء تفسير واضح لمسألة النوم، إذا أنّهم يريدون تفسير هذه المسألة من دون قبول أصالة واستقلالية الروح، فالنوم قبل أن يكون ظاهرة جسدية هو ظاهرة روحية، ومن دون معرفة الروح بصورة صحيحة فإنّ تفسير النوم حالة متعذرة.

القرآن المجيد وضّح من خلال آياته المذكورة أعلاه أدقّ التفاسير لمسألة النوم، إذ يقول: إن النوم هو نوع من أنواع (قبض الروح) وانفصال الروح من الجسد، ولكن هذا الانفصال ليس انفصالا كاملا. وبهذا الشكل فعندما يخفت شعاع الروح في الجسد بأمر من الله، ولا يبقى غير شعاع خافت اللون يشع في ذلك الجسد، يتعطل جهاز الإدراك والشعور عن العمل، ويتوقف الحسّ والحركة عند الإنسان، عدا

بعض الأجزاء التي تبقى تواصل نشاطها لحفظ واستمرار الحياة عند الإنسان، كضربات القلب ودوران الدم ونشاطات الجهاز التنفسي والغذائي.

وقد ورد في حديث عن الإمام الباقر(ع): «ما من أحد ينام إلاّ عرجت نفسه إلى السماء، وبقيت روحه في بدنه، وصار بينهما سبب كشعاع الشمس، فإن أذن الله في قبض الأرواح أجابت الروح النفس، وإن أذن الله في ردّ الروح أجابت النفس الروح، فهو قوله سبحانه: (الله يتوفى الأنفس حين موتها)»[8].

وثمّة مسألة مهمّة أُخرى هي مسألة (الرؤيا) لأنّ الكثيرين يرون في عالم الرؤيا أحلاماً حدثت وقائعها أو ستحدث فيما بعد في الواقع، مع اختلافات جزئية أو بدون أيّ اختلاف.

التفاسير المادية عاجزة عن توضيح مثل هذه الرؤيا والأحلام، في حين أن التفاسير الروحية تستطيع بسهولة توضيح هذا الأمر، لأنّه عندما تنفصل روح الإنسان عن جسده وترتبط بعالم الأرواح، تدرك حقائق كثيرة لها علاقة بالماضي والمستقبل، وهذه الحالة هي التي تشكل أساس الرؤيا الصادقة، وللتوضيح أكثر يراجع التفسير الأمثل) في نهاية الآية [9] من سورة يوسف، إذ أنّ هناك شرحاً مفصلا بهذا الخصوص.

8. خصال الصدوق، نقلا عن تفسير نور الثقلين، المجلد 4، الصفحة 488.
9. أصول الكافي، نقلا عن تفسير نور الثقلين، المجلد 4، الصفحة 488.

2 - النوم كما ورد في الروايات الإسلامية:

يتضح جيداً من خلال روايات المفسّرين التي وردت في نهاية الآيات المذكورة أعلاه، أنّ النوم يعني في الإسلام حركة الروح نحو عالم الأرواح، فيما تعني اليقظة عودة الروح إلى الجسد لبدء حياة جديدة.

ونقرأ في حديث ورد عن أمير المؤمنين ع ضمن وصاياه لأصحابه:

«لا ينام المسلم وهو جنب، لا ينام إلاّ على طهور، فإن لم يجد الماء فليتيمم بالصعيد، فإنّ روح المؤمن ترفع إلى الله تعالى فيقبلها، ويبارك عليها، فإن كان أجلها قد حضر جعلها في كنوز رحمته، وإن لم يكن أجله قد حضر بعث بها مع أمنائه من ملائكته، فيردونها في جسده»[10].

وورد حديث آخر عن الإمام الباقر(ع) جاء فيه: «إذا قمت بالليل من منامك فقل: الحمد لله الذي ردّ عليّ روحي لأحمده وأعبده»[11].

والأحاديث في هذا الشأن كثيرة.

10. «اشمأزت»: من مادة (اشمئزاز) وتعني الانقباض والنفور عن الشيء، (وحده) منصوب حال أو مفعول مطلق.
11. صول الكافي، وروضة الكافي، نقلا عن تفسير نور الثقلين، المجلد 4، الصفحة 490.

الآيـــــــــــات 45 - 48

وَإِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَحْدَهُ اشْـمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِيـنَ لاَ يُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِـرُونَ(45) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّـمَوَاتِ وَ الأَرْضِ عَلِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّـهَـدَةِ أَنْـتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَـادِكَ فِى مَا كَانُوا فِيـهِ يَخْتَلِفُونَ(46) وَ لَـوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُـوا مَـا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ مِنْ سُـوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَـمَةِ وَ بَدَا لَهُمْ مِّنَ اللّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِـبُونَ(47) وَ بَدَا لَهُمْ سَـيِّئَاتُ مَا كَسَـبُوا وَ حَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ(48)

التّفسير

الذين يخافون من اسم الله!

مـرّة اُخرى يدور الحديث عن التوحيد والشـرك، إذ عكسـت الآيـة الأولى إحدى الصور القبيحة والمشوهة للمشركين ولمنكري المعاد من خلال تعاملهم مع التوحيد، قال تعالى: (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون)[1].

فأحياناً يستحسن الإنسان القبائح ويستقبح الحسنات بحيث ينزعج إذا سمع اسم الحق ويستبشر إذا سمع اسم الباطل لا يسجد ولا يركع أمام عظمة الله جلّ وعلا خالق الكون، إلاّ أنّه يسـجد ويركع تعظيماً لأصـنام صنعها من الحجارة والخشب أو لإنسان أو كائنات مثله.

1. «فاطر السموات» منصوب بعنوان منادى مضاف.

ونظير هذا المعنى ورد في الآية (46) من سورة الإسراء، قال تعالى: (وإذا ذكرت ربّك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً). وفي سورة نوح الآية (السابعة) عندما شكى نبيّ الله نوح(ع) ممن يفكر بمثل هذا التفكير المنحرف إلى الله سبحانه وتعالى (وإنّي كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً).

نعم، هذا هو حال المتعصبين اللجوجين والجهلة المغرورين.

من هذه الآية يتضح بصورة جيدة أنّ مصدر شقاء هذه المجموعة أمران:

الأوّل: إنكارهم لأساس التوحيد

والثّاني: عدم إيمانهم بالآخرة. وفي المقابل نرى المؤمنين لدى سماعهم اسم الله ينجذبون إليه بدرجة أنّهم على استعداد لبذل كلّ ما لديهم في سبيله، فاسم حبيبهم يحلّي أفواههم ويعطّر أنفاسهم ويضيء قلوبهم، كما أن سماع أي شيء يرتبط ويتعلق بالله يبعث السرور والبهجة في قلوبهم.

نعود إلى المشركين مرّة أُخرى لنقول: إن الصفة القبيحة التي ذكرناها في بداية البحث بشأن المشركين، لا تخصّ مشركي عصر الرّسول الأكرم(ص) وإنّما في عصر وزمان هناك منحرفون ذوو قلوب مظلمة يفرحون ويستبشرون فور سماعهم أسماء أعداء الله وأصحاب المذاهب الإلحادية، وسماعهم نبأ انتصار الظلم والطغيان، أمّا سماع أسماء الطيبين والطاهرين ومناهجهم وانتصاراتهم فإنّه يسبب لهم آلاماً

مبرحة، بعض الرّوايات فسّرت الآية على أنّها تعني أُولئك الذين ينزعجون من سماع فضائل أهل بيت النبوّة الأطهار (عليهم السلام) أو من يتبع نهجهم[2].

وعندما يصل الأمر إلى درجة أنّ مجموعة من اللجوجين والجهلة المغرورين ينفرون ويشمئزون حتى من سماع اسم الله، يوحي البارئ عزّ وجلّ إلى نبيّه الكريم (ص) أن يتركهم ويتوجه إلى الباري عز وجل ويشتكي إليه من هؤلاء بلحن مليء بالعواطف الرفيعة والعشق الإلهي لكي يبعث على تسكين قلبه المليء بالغم من جهة، وعلى تحريك العواطف الهامدة عند أُولئك من جهة أُخرى: (قل اللّهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون)[3].

نعم أنت الحاكم المطلق في يوم القيامة الذي تنتهي فيه الاختلافات وتظهر فيه كلّ الحقائق المخفية، لأنك خالق كلّ شيء في الوجود وعالم بكل الأسرار فتنتهي الاختلافات بحكمك العادل، وهناك يدرك المعاندون مدى خطئهم، ويفكرون في إصلاح ما مضى، ولكن ما الفائدة؟

الآية التالية تقول: (ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لا فتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة) ولكن هذا الأمر غير ممكن.

«الظلم»: هنا له معان واسعة تشمل الشرك أيضاً وبقية المظالم. ثم تضيف الآية (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون).

وسيرون العذاب بأعينهم، العذاب الذي لم يكن يتوقعه أحد منهم، لأنّهم كانوا مغرورين بلطف الله، في حين كانوا في غفلة عن غضبه وقهره. وأحياناً كانوا

2. الم سجدة، 17.
3. تفسير مجمع البيان وتفسير القرطبي ذيل آية البحث.

يقومون بأعمال يتصورونها حسنة، في حين أنّها كانت من الذنوب الكبيرة. على أيّ حال، تظهر لهم في ذلك اليوم أُمور لم يكن يتصور أحد ظهورها. ذلك الوعيد يأتي في مقابل الوعود الطيبة التي قطعت للمؤمنين، قال تعالى: (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين)[4]. وقد نقل أنّ أحد المسلمين جزع عند الموت، فقيل له: أتجزع، فقال: أخذتني هذه الآية (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون)[5].

الآية التالية توضيح أو تتمة لموضوع طرحته الآية السابقة، إذ تقول: (وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون). في الحقيقة هناك أربعة مواضيع تتعلق بالمشركين والظالمين طرحت في هذه الآيات:

أوّلا: إنّ هول ورهبة العذاب الإلهي في ذلك اليوم ستكون من الشدّة بحيث تجعلهم يتمنون لو أنّ لديهم في تلك الساعة ضعف الثروات والأموال التي كانوا يمتلكونها في عالم الدنيا ليفتدوا بها من سوء العذاب، ولكن من المستحيل أن يحدث مثل هذا الأمر في يوم القيامة.

ثانياً: تظهر أمامهم أنواع من العذاب الإلهي الذي لم يكن أحد يتوقعه ولا يتصوره.

ثالثاً: حضور أعمالهم السيئة أمامهم وتجسيدها لهم.

رابعاً: مشاهدتهم حقيقة المعاد الذي لم يأخذوه مأخذ الجد، ومن ثمّ انغلاق كلّ أبواب النجاة أمامهم.

الآية التي تقول: (بدا لهم سيئات ما كسبوا) والتي وردت آنفاً، هي دليل آخر على مسألة تجسيد الأعمال.

---

4. «خول»: من مادة (تخويل) وتعني الإعطاء على نحو الهبة، وقد شرحت بالتفصيل في ذيل الآية الثامنة من هذه السورة (الزمر)، ضمير (أوتيته) رغم أنّه يعود على (نعمة) فقد جاء بصيغة المذكر، لأنّ المقصود منه (شيء من النعمة) أو (قسم من النعمة).
5. ضمير (قد قالها) راجع إلى القول السابق باعتبار أنّه مقالة أو كلمة، والمراد منها عبارة (إنّما أوتيته على علم).

الآيـــــــــــات 49 - 52

فَإِذَا مَسَّ الإنسَـــنَ ضُـــرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إذا خَوَّلْنَـهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوْتِيتُهُ عَلَى عَلْم بَلْ هِـــي فِتْنَـــةٌ وَ لَـكِنَّ أَكْثَرَهُـــمْ لاَ يَعْلَمُونَ (49) قَـدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِـمْ فَمَآ أَغْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (50) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِـــيبُهُمْ سَيِّئَاتِ مَا كَسَـــبُوا وَ مَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ(51) أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللّه يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لاَيَتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(52)

التّفسير

في الشـــدائد يذكرون اللّه، ولكـــن... الآيات هنا تتحدث مرّة اُخرى عن المشـــركين والظالمين، وتعكس صورة اُخرى من صورهم القبيحة.

في البداية يقول (فإذا مس الإنســـان ضـــرّ دعانا) فذلك الإنسان الذي كان -وفق ما جاء الآيات الســـابقة- يشمئز من ذكر اســـم اللّه. نعم، هو نفسه يلجأ إلى ظلّ اللّه عندما يصـــيبه الضـــرّ ويتعرض للشـــدائد. لكن هذا اللجوء مؤقت، إذ ما إن يتفضّـــل عليه البارئ عزّ وجلّ ويكشـــف عنه الضر والشـــدائد، حتى يتبجح ناكراً لهذه النعم، وزاعماً بأنّه هو الذي أنقذ نفسه من ذلك الضر (ثم إذا خولناه نعمة منّا قال إنّما أوتيته على علم)[6].

نظير هذا الكلام نقله القرآن في الآية (78) من سورة القصص عن لسان «قارون»

6. نهج البلاغة، قصار الكلمات، الكلمة 250.

عندما نصحه علماء بني إسرائيل بأن ينفق ممّا منّ الله به عليه في سبيل الله، إذ قال: (إنّما أوتيته على علم عندي).

إنّ أمثال هؤلاء الغافلين لا يتصورون أنّ العلوم والمعارف التي يمتلكها الإنسان إنّما هي نعمة إلهية، فهل أنّ هؤلاء اكتسبوا العلم الذي كان يدرّ عليهم الأموال الطائلة من ذاتهم؟ أم أنّه كان في ذاتهم منذ الأزل؟

بعض المفسّرين ذكروا احتمالا آخر لتفسير هذه العبارة، وقالوا: إنّ النعم التي منّ بها البارئ عزّ وجلّ علينا إنّما منّ بها علينا لعلمه بلياقتنا واستحقاقنا لها. ومع أنّ هذا الاحتمال وارد بشأن الآية مورد بحثنا، لكنّه غير وارد بشأن الآية الآنفة التي تحدثت عن قارون، خاصة مع وجود كلمة (عندي) وهذه أحد القرائن لترجيح التّفسير الأوّل للآية التي هي مورد البحث.

ثم يجيب القرآن الكريم على أمثال هؤلاء المغرورين، الذين ينسون أنفسهم وخالقهم بمجرّد زوال المحنة وتوفّر النعمة، قائلا: (بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون).

فالهدف من ابتلائهم بالحوادث الشديدة والصعبة، ومن ثمّ إغداق النعم الكبيرة عليهم هو اظهار خباياهم والكشف عن بواطنهم.

هل ييأس الإنسان عند المصيبة ويغترّ ويطغى عند النعمة؟

هل أنّه يزداد تفكيراً بالله عزّ وجلّ عندما يحاط بهذه النعم، أم أنّه يغرق في ملذات الدنيا؟

هل ينسى ذاته، أو أنّه يلتفت إلى نقاط ضعفه ويعود إلى ذكر الله أكثر؟

ممّا يؤسف له أنّ أكثر الناس مبتلون بالنسيان، وغير مطلعين على الحقائق التي تكررت مرات عديدة في آيات القرآن المجيد، وهي أنّ العزيز الحكيم يجعل الإنسان أحياناً محاطاً بالمشاكل والابتلاءات الشديدة، وأحياناً يغدق عليه النعم، وذلك ليمتحنه ويرفع من شأنه وليعرفه بأن كلّ شيء في هذه الحياة هو من الله سبحانه وتعالى.

ومن الطبيعي أنّ الشدائد تهيء الأرضية لتفتتح الفطرة، كما أنّ النعم مقدمة للمعرفة (وفي هذا الخصوص أوردنا بحثاً آخر في تّفسيرنا الأمثل في نهاية الآية(65) من سورة العنكبوت). وممّا يدعو إلى الانتباه تأكيد الآية على كلمة (إنسان) التي عرفته بأنّه كثير النسيان والغرور، وهذه إشارة إلى الذين لم يتربوا وفق ما جاء في الشرائع والسنن الإلهية، والذين لم يكن لهم أيّ مربّ ومرشد.. الذين أطلقوا لشهواتهم العنان واستسلموا لأهوائهم، نعم فهؤلاء هم الذين يلجؤون إلى البارئ عزّ وجلّ كلّما مسّهم الضرّ وكلمّا ابتلوا بالشدائد والمحن، ولكن عندما تهدأ أعاصير الحوادث ويشملهم لطف البارئ وعنايته، ينسونه وكأنّهم لم يدعوه إلى ضرّ مسّهم. ولمزيد من الاطلاع راجع موضوع: الإنسان في القرآن الكريم. في نهاية الآية(12) من سورة يونس.

وتضيف الآية التالية (قد قالها الذين من قبلهم فما اغنى عنهم ما كانوا يكسبون)[7].

نعم، فقارون وأمثاله من المغرورين يتصورون أنّهم حصلوا على الأموال بسبب لياقتهم وغفلوا عن أنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي منّ بهذه النعم عليهم وأنّه

7. مجمع البيان وتفسير القرطبي وتفسير الصافي ذيل الآية مورد البحث.

المصـدر الأصـل للنعم والواهب الحقيقي لها، وأنّهم كانوا ينظرون فقط للأسباب الظاهريـة، لكن التاريخ بيّن أنّه عندما خسـف البارئ عزّ وجـلّ الأرض بأُولئك لم يسـرع أحـد إلى مسـاعدتهم، ولم تنفعهم أموالهم، كما ورد في سـورة القصـص الآية(81) (فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله).

وليـس قارون -وحده- ابتلي بهذا العذاب، وإنّما أقوام عاد وثمود وسـبأ وأمثالهم ابتلوا -أيضاً- وكان لهم نفس المصير. ثم يقول: (فأصابهم سيئات ما كسبوا).

فكل واحد منهم ابتلي بنوع من العذاب الإلهي وهلك، كابتلائهم بالطوفان والسيل والزلزال والصيحة السماوية.

ويضـيف: إنّ هذا المصير لا ينحصـر بأولئك الاقوام وحسـب بل إنّ مشركي مكّة سـيبتلون في القريب العاجل بعواقب أعمالهم السـيئة، ولا يسـتطيع أحد منهم أن يفرّ من قبضـة العذاب الإلهي الذي سـينزل بهم جميعاً (والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين).

وسـينال هذا العذاب والابتلاء كلّ الطغاة والمغرورين والمشـركين، وفي كلّ العصور والقـرون. ومن جهة أُخرى ورد احتمالان في هل أنّ المراد من عبارة (سيصـيبهم سـيئات مـا كسـبوا) هو العـذاب الدنيـوي أم العـذاب الأُخـروي، ولكـن بقرينة (فأصابهم سيئات ما كسبوا) فإنّ التّفسير الأوّل أنسب.

القـرآن الكـريم أجاب علـى ادعاءات الذيـن يزعمـون أنّهم حصـلوا على النعم الدنيوية بعلمهم وقدرتهم، عندما دعاهم إلى مراجعة تأريخ الأولين للاطلاع على

أنـواع الابتلاءات والعذاب الذي ابتلوا به بسـبب مزاعمهـم الباطلة، وهذا هو ردّ تأريخـي وواقعي. ثمّ يرد القرآن الكـريم عليهم بردّ عقلي، إذ يقول: (أو لم يعلموا أن اللّه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر).

فالكثير من الأشـخاص الكفوئين نراهم يعيشون حياة المستضعفين والبسطاء، في حين نرى أنّ الكثير من الأشـخاص غير الكفوئين يعيشون أثرياء ومتنعمين من كلّ النواحي، فلو كان الظفر المادي كلّه يأتي عن طريق جهد وسـعي الإنسـان إضـافة إلى كفاءته، لما كنّا نرى مثل هذه المشاهد. إذن فمن هنا يستدل على وجود يد قوية اُخرى خلف عالم الاسباب تدير الشؤون وفق منهج محسوب.

صـحيح أنّـه يجب على الإنسـان أن يبذل الجهد والسـعي في حياته، وصـحيح أنّ الجهاد والسـعي هما مفتاح حلّ الكثير من المشـاكل، ولكن إغفال مسبب الأسباب والنظر إلى الأسباب فقط، واعتبار الكفاءة هي المؤثر الوحيد يعد خطأً كبيراً.

فإحدى أسـرار إحاطة الفقر والحرمان بمجموعة من العلماء المقتدرين، وإحاطة الغنـى بمجموعة مـن الجهلة غير الأكفاء هـو تنبيه لكلّ النـاس التائهين في عالم الأسـباب بأن لا يعتمدوا فقط على قواهم الذاتية. لذا تضـيف الآية (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون).

الآيات التي وضحها أمير المؤمنين ع عندما قال: «عرفت اللّه بفسخ العزائم وحل العقود الهمم»[8]. وهي كلمة سـامية تدلّ على ضـعف وعجز الإنسـان كي لا يتيه ولا يبتلى بالغرور والتكبر.

8. سفينة البحار، المجلد الاول، الصّفحة 127، مادة التوبة.

الآيـــــــــــات 53 - 55

قُـلْ يَعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلَـى أَنْفُسِـهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَـةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(53) وَ أَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُواْ لَهُ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَـرُونَ(54) وَ اتَّبِعُواْ أَحْسَـنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ(55)

التّفسير

إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً (عليهم السلام)

بعد التهديدات المتكررة التي وردت في الآيات السـابقة بشـأن المشركين والظالمين، فإنّ آيات بحثنا فتحت الأبواب أمام المذنبين وأعطتهم الأمل، لأنّ الهدف الرئيسي مـن كلّ هذه الأمور هـو التربية والهداية وليس الانتقـام والعنف، فبلهجة مملوءة باللطـف والمحبة يفتـح البارئ أبـواب رحمته أمـام الجميع ويصـدر أوامر العفو عنهـم، عندمـا يقول: (قل يـا عبادي الذين أسـرفوا على أنفسـهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً).

التدقيـق في عبـارات هذه الآية يبيّن أنّها من أكثر آيـات القرآن الكريم التي تعطي الأمل للمذنبين، فشـموليتها وسـعتها وصلت إلى درجة قال بشـأنّها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع): «ما في القرآن آية أوسع من يا عبادي الذين أسرفوا...»[9].

9. أصول الكافي، المجلد 2، الصفحة 216، باب التوبة، الحديث 10.

والدليل على ذلك واضح من وجوه:

1 – التعبير بـ (يا عبادي) هي بداية لطف البارئ عزّ وجلّ.

2 – التعبير بـ (إسراف) بدلا من (الظلم والذنب والجريمة) هو لطف آخر.

3 – التعبير بـ (على أنفسهم) يبيّن أنّ ذنوب الإنسان تعود كلّهاعليه، وهذا التعبير هو علامة أُخرى من علامات محبّة الله لعباده، وهو يشبه خطاب الأب الحريص لولده، عندما يقول: لا تظلم نفسك أكثر من هذا!

4 – التعبير بـ (لا تقنطوا) مع الأخذ بنظر الاعتبار أن «القنوط» يعني –في الأصل– اليأس من الخير، فإنّها لوحدها دليل على أن المذنبين يجب أن لا يقنطوا من اللطف الإلهي.

5 – عبارة (من رحمة الله) التي وردت بعد عبارة (لا تقنطوا) تأكيد آخر على هذا الخير والمحبّة.

6 – عندما نصل إلى عبارة (إنّ الله يغفر الذنوب) التي بدأت بتأكيد، وكلمة «الذنوب» التي جمعت بالألف واللام تشمل كلّ الذنوب من دون أيّ استثناء، فإنّ الكلام يصل إلى أوجه، وعندها تتلاطم أمواج بحر الرحمة الالهية.

7 – إنّ ورود كلمة (جميعاً) كتأكيد آخر للتأكيد السابق يوصل الإنسان إلى أقصى درجات الأمل.

8 و 9 – وصف البارئ عزّ وجلّ بالغفور والرحيم في آخر الآية، وهما وصفان من أوصاف الله الباعثة على الأمل، فلا يبقى عند الإنسان أدنى شعور باليأس أو فقدان الأمل.

نعم، لهذا السبب فإنّ الآية المذكورة أعلاه من أوسع وأشمل آيات القرآن المجيد، حيث تعطي الأمل بغفران كلّ أنواع الذنوب، ولهذا السبب فإنّها تبعث الأمل في النفوس أكثر من بقية الآيات القرآنية. وحقّاً، فإنّ الذي لانهاية لبحر لطفه، وشعاع فيضه غير محدود، لا يتوقع منه أقل من ذلك.

وقد شغلت أذهان المفسّرين مسألتان، رغم أن حلهما كامن في هذه الآية والآية التي تليها:

الأولى: هل أنّ عمومية الآية تشمل كّل الذنوب حتّى الشرك والذنوب الكبيرة الأُخرى، فإذا كان كذلك فلم تقول الآية (48) من سورة النساء: إنّ الشرك من الذنوب التي لا تغتفر (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء).

والثّانية: هل أنّ الوعد الذي أعطاه الله بغفران الذنوب مطلق أم مشروط بالتوبة ونظير ذلك؟ وبالطبع فإنّ السؤال الأوّل مرتبط بالسؤال الثّاني، والجواب عليهما سيتّضح خلال الآيات التالية بصورة جيدة، لأنّ هناك ثلاثة أوامر وردت في الآيات التالية وضحت كلّ شيء (أنيبوا إلى ربّكم) والثّانية (وأسلموا له) والثّالثة (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربّكم).

هذه الأوامر الثّلاثة تقول: إنّ أبواب المغفرة والرحمة مفتوحة للجميع من دون أي استثناء، ولكن شريطة أن يعودوا إلى أنفسهم بعد ارتكاب الذنب، ويتوجهوا في مسيرهم نحو البارئ عزّ وجلّ، ويستسلموا لأوامره، ويظهروا صدق توبتهم وأنابتهم بالعمل، وبهذا الشكل فلا الشرك مستثنى من المغفرة ولا غيره، وكما

قلنا فإنّ هذا العفو العام والرحمة الواسعة مشروطان بشروط لا يمكن تجاهلها.

وإذا كانت الآية (48) من سورة النساء تستثني المشركين من هذا العفو والرحمة، فإنّها تقصد المشركين الذين ماتوا على شركهم، وليس أُولئك الذين صحوا من غفلتهم واتبعوا سبيل الله، لأنّ أكثر مسلمي صدر الإسلام كانوا كذلك، أي أنّهم تركوا عبادة الأصنام والشرك بالله، وآمنوا بالله الواحد القهار بعد دخولهم الدين الإسلامي.

إذا طالعنا الحالة النفسية عند الكثير من المجرمين بعد ارتكابهم للذنب الكبير، نرى أن حالة من الألم والندم تصيبهم بحيث لا يتصورون بقاء طريق العودة مفتوحاً أمامهم، ويعتبرون أنفسهم ملوثين بشكل لا يمكن تطهيره، ويتسألون: هل من الممكن أن تغفر ذنوبنا؟ وهل أن الطريق إلى الله مفتوح أمامنا؟ وهل بقي خلفنا جسر غير مدمّر؟

إنّهم يدركون معنى الآية جيداً، ومستعدون للتوبة، ولكنّهم يتصورون استحالة غفران ذنوبهم، خاصّة إذا كانوا قد تابوا مرات عديدة من قبل ثمّ عادوا إلى ارتكاب الذنب مرّة أخرى.

هذه الآية تعطي الأمل للجميع في أنّ طريق العودة والتوبة مفتوح أمامهم. لذا فإنّ (وحشي) المجرم المعروف في التأريخ الإسلامي والذي قتل حمزة سيد الشهداء(ع)، كان خائفاً من عدم قبول توبته، لأنّ ذنبه كان عظيماً، مجموعة من المفسّرين قالوا: إن هذه الآية عندما نزلت على الرّسول الأكرم(ص) فتحت أبواب الرحمة الإلهية أمام وحشي التائب وأمثاله!

ولكـن لا يمكن أن تكون هذه الحادثة سـبب نزول هذه الآية، لأن هذه السـورة من السـور المكّية، ولم تكن معركة أحد قد وقعت يوم نزول هذه الآيات، ولم تكن أيضـاً قصة شهادة حمزة ولا توبة وحشي، وإنّما هي من قبيل تطبيق قانون عام على أحد المصاديق، وعلى أية حال فإنّ شمول معنى الآية يمكن أن يشخص هذا المعنى.

يتضـح ممّا تقدم أنّ إصـرار بعض المفسّـرين كالألوسي في تفسـيره (روح المعاني) على أنّ الوعد بالمغفرة الذي ورد في الآية المذكورة أعلاه ليس مشـروطاً بشـيء غير صـحيح، حتّى أنّ الأدلّة السبعة عشر التي ذكرها بشـأن هذا الموضوع غير مقبولة، لأنّ فيها تعارضـاً واضـحاً مع الآيات التالية، والكثير من هذه الأدلة السـبعة عشـر يمكن ادغامها في بعضـها البعض، ولا يفهم منها سـوى أنّ رحمة الله واسـعة تشمل حتّـى المذنبـين، وهذا لا يتعارض مـع كون الوعـد الإلهي مشـروطاً، بقرائن الآيات التالية، وسيأتي مزيد بحث في نهاية هذا البحث.

ترشـد المجرمين والمذنبين علـى أبواب الدخول إلى بحر الرحمة الإلهية الواسـع إذ تقول: (وأنيبوا إلى ربّكم) واصلحوا أُموركم ومسير حياتكم (واسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثمّ لا تنصرون).

بعد طـي هاتين المرحلتين «الإنابة» و«التسـليم»، تتحدث الآية عـن المرحلة الثّالثة وهي مرحلة (العمل)، إذ تقول: (واتبعوا أحسـن ما أنزل إليكم من ربّكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون).

وبهذا الشكل فإنّ مسيرة الوصول إلى الرحمة الإلهية لا تتعدى هذه الخطوات الثلاث:

الخطوة الأُولى: التوبة والندم على الذنب والتوجه إلى الله تعالى.

الخطوة الثّانية: الإيمان بالله والاستسلام له.

الخطوة الثّالثة: العمل الصالح.

فبعد طي هذه المراحل الثلاث يكون الإنسان قد دخل إلى بحر الرحمة الإلهية الواسع طبقا لوعد الله المؤكد مهما كان ذلك الإنسان مثقلا بالذنوب.

أمّا بشأن المراد من (اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربّكم) فقد ذكر المفسّرون تفسيرات متعددة. والتّفسير الذي هو أفضل من البقية هو أنّ أوامر متعددة ومختلفة نزلت من عند البارئ عزّ وجلّ، البعض منها واجب والآخر مستحبّ، والبعض الآخر مباح، والمراد من (أحسن) هو انتخاب الواجبات والمستحبات، مع الانتباه إلى تدرّجها.

وقال البعض: إنّه إشارة إلى كون القرآن هو أحسن الكتب السماوية النازلة، بدليل ما ورد في الآية (23) من هذه السورة الزمر (الله أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني). وبالطبع فإنّه لا يوجد هناك أي تعارض بين التّفسيرين.

بحثـــــــــان

1 - باب التوبة مفتوح للجميع

من المشاكل التي تقف عائقاً في طريق بعض المسائل التربوية، هو إحساس الإنسان بعقدة الذنب جراء الأعمال القبيحة السـابقة التي ارتكبها، خاصة إذا كانت هذه الذنوب كبيرة، إذ إنّ الذي يستحوذ على ذهن الإنسان إن أراد التوجّه نحو الطهارة والتقوى والعودة إلى الله، فكيف يتخلص من أعباء الذنوب الكبيرة السابقة.

هـذا التفكير يبقى كابوسـاً مخفياً يرافقـه كالظل، فكلّما خطـا خطوة نحو تغيير منهاج حياته وسـعى نحو الطهارة والتقوى، تحدثه نفسـه: ما الفائدة من التوبة؟ فسلاسل أعمالك السابقة تطوق يديك ورجليك، لقد اصطبغت ذاتك بلون الذنب، وهـو لون ثابت ولا يمكـن إزالته... والمطلعون على مسـائل التربيـة وتوبة المذنبين يدركون جيداً ما ذكرناه، يعلمون حجم هذه المشكلة الكبيرة.

التعاليم الإسـلامية في القرآن المجيد حلت هذه المشـكلة عندما أفصـحت عن أنّ التوبـة والإنابـة يمكن أن تكون أداة قاطعة وحازمة للانفصـال عن الماضـي وبدء حيـاة جديدة، أو حتى يمكـن أن تكون بمثابة (ولادة جديـدة) للتائب إذا تحققت بشرطها وشروطها، إذ تكرر الحديث في الروايات الإسلامية بشأن بعض المذنبين التائبين، حيث ورد (كمن ولدته أُمه).

وبهذا الشكل فإنّ القرآن الكريم يبقي أبواب اللطف الإلهي مفتّحة أمام كلّ الناس

مهمـا كانت ظروفهم، والمثال على ذلك الآيات المذكـورة آنفاً التي تدعو المجرمين والمذنبين بلطف للعودة إلى الله، وتعدهم بإمكانية محو الماضي.

ونقرأ في رواية وردت عن رسول الله (ص): «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[10].

كمـا ورد حديث آخر عـن الإمام الباقر (ع) جاء فيـه: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزئ»[11].

ومـن البديهي أن هذه العـودة لا يمكن أن تتمّ بدون قيد أو شـرط، لأنّ البارئ عزّ وجلّ حكيم ولا يفعل شيئاً عبثاً، فإذا كانت أبواب رحمته مفتحة أما عباده، ودعوته إيّاهم للتوبة مستمرة، فإنّ وجود الاستعداد عند العباد أمر لابدّ منه.

ومن جهة أُخرى يجب أن تكون عودة الإنسان صادقة، وأن تحدث انقلاباً وتغيراً في داخله وذاته. ومن ناحية ثانية يجب أن يبدأ الإنسان بعد توبته بإعمار وبناء أُسس الإيمان والعقيدة التي كانت قد دمّرت بعواصف الذنوب.

ومن ناحية ثالثة، يجب أن يصلح الإنسان بالأعمال الصالحة عجزه الروحي وسوء خلقـه، فكلّما كانت الذنوب السـابقة كبـيرة، عليه أن يقوم بأعمال صـالحة أكثر وأكـبر، وهـذا بالتحديد ما بيّنه القـرآن المجيد في الآيات الثـلاث المذكورة أعلاه تحت عنوان (الإنابة) و(التسليم) و(اتباع الأحسن).

10. سـفينة البحار، المجلد 2، الصـفحة 637، مادة (وحش) وتفسـير الفخر الرازي، المجلد 27، الصفحة 4؛ وتفسير نور الثقلين، المجلد 4، الصفحة 493.
11. بحار الأنوار، المجلد 6، الصفحة 24 (طبع بيروت).

2 - أصحاب الأحمال الثقيلة

بعض المفسّـرين أوردوا أسباباً متعددة لنزول الآيات آنفة الذكر، ويحتمل أن تكون جميعها من قبيل التطبيق وليس من قبيل أسباب النّزول.

ومنها قصـة (وحشـي) الذي ارتكب أفظع جريمة في سـاحة معركة أحد، عندما قتـل حمزة عـمّ النّبي(ص) غدراً، وقد كان حمزة قائداً شـجاعاً كرّس كلّ حياته في سـبيل الدفاع عن النّبي الكريم. وبعبارة اُخرى: إنّه كان درعاً للرسـول(ص). فبعد أن بلغ الإسـلام أوج عظمته وانتصر المسلمون على أعدائهم، أراد وحشي أن يدخل الدين الإسـلامي، ولكنّه كان خائفاً من عدم قبول إسـلامه، ولما أسـلم قال له النّبي(ص): «أوحشـي؟» قـال: نعم، قال: «أخبرني كيف قتلـت عمي» فأخبره، فبكى(ص)، وقال: «غيب وجهك عنّي فإنّي لا أسـتطيع النظر إليك» فلحق بالشام فمات في الخمر[12]. وهنا تساءل أحدهم: هل أن هذه الآية تخص وحشياً فقط أم تشمل كلّ المسلمين، فأجاب رسول اللّه(ص): إنّها تشمل الجميع.

ومنها قصة النباش، قال: دخل معاذ بن جبل على رسول اللّه باكياً فسلّم فردّ ع ثمّ قال: «ما يبكيك، يا معاذ؟» فقال: يا رسـول اللّه، إنّ بالباب شاباً طريّ الجسد نقي اللون حسن الصورة يبكي على شبابه بكاء الثكلى على ولدها يريد الدخول عليك.

12. التّفسير الكبير لفخر الرازي، المجلد 27، الصفحة 4 ذيل آيات البحث.

فقال النّبي(ص): «ادخل عليّ الشـاب يا معاذ» فأدخله عليه فسـلم فردّ ع قال: «ما يبكيك يا شاب؟»

قـال: كيف لا أبكي وقد ركبت ذنوباً، إن أخذني الله عزّ وجلّ ببعضـها أدخلني نار جهنم؟ ولا أراني إلاّ سيأخذني بها ولا يغفر لي أبداً.

فقال رسول الله(ص): «هل أشركت بالله شيئاً؟».

قال: أعوذ بالله أن أشرك بربّي شيئاً.

قال: «أقتلت النفس التي حرّم الله؟».

قال: لا.

فقال النّبي(ص): «يغفر الله لك ذنوبك، وإن كانت مثل الجبال الرواسي».

فقال الشاب: فإنّها أعظم من الجبال الرواسيّ.

فقال النّبي(ص): «يغفر الله لك ذنوبك، وإن كانت مثل الأرضـين السبع وبحارها ورمالها وأشجارها وما فيها من الخلق».

قال: فإنها أعظم من الأرضين السبع وبحارها ورمالها وأشجارها وما فيه من الخلق.

فقـال النّبي(ص): «يغفـر الله ذنوبك وإن كانـت مثل السـماوات ونجومها ومثل العرش والكرسي».

قال: فإنّها أعظم من ذلك.

قـال: فنظـر النّبي(ص) إليه كهيئة الغضـبان ثـمّ قال: «ويحك يا شـاب ذنوبك

أعظم أم ربّك؟». فخّر الشـاب لوجهه وهو يقول: سـبحان ربّي ما شيء أعظم من ربّي، ربّي أعظم يا نبيّ الله من كلّ عظيم.

فقال النّبي(ص): «فهل يغفر الذنب العظيم إلاّ الربّ العظيم».

قال الشـاب: لا والله يا رسـول الله، ثمّ سكت الشاب فقال له النّبي(ص): «ويحك يا شاب ألا تخبرني بذنب واحد من ذنوبك؟».

قال: بلى، أخبرك: إنّي كنت أنبش القبور سبع سنين، أخرج الأموات وأنزع الأكفان، فماتـت جارية من بعض بنات الأنصـار فلمّا حملت إلى قبرها ودفنت وانصـرف عنها أهلها وجنّ عليهم الليل، أتيت قبرها فنبشتها ثمّ استخرجتها ونزعت ما كان عليها من أكفانها وتركتها متجرّدة على شـفير قبرها ومضـيت منصرفاً، فأتاني الشيطان فأقبل يزيّنها لي... ولم أملك نفسي حتى جامعتها وتركتها مكانها. فاذا أنا بصـوت من ورائي يقول: يا شـاب ويل لك من ديّان يوم الدين... فما أظن أنّي أشم رائحة الجنّة أبداً فما ترى يا رسول الله.

فقال النّبي(ص): تنحى عنّي يا فاسـق؛ إنّي أخاف أن أحترق بنارك، فما أقربك مـن النّار!... فذهب فأتـى المدينة فتزوّد منها ثمّ أتى بعض جبالها متعبّداً فيها، ولبس مسـحاً وغل يديه جميعاً إلى عنقه، ونـادى: يا ربّ هذا عبدك (بهلول) بين يديك مغلول... ثمّ قال: اللّهم ما فعلت في حاجتي إن كنت استجبت دعائي وغفرت خطيئتـي فأوح إلى نبيّك، وإن لم تسـتجب لي دعائـي... فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيّه(ص) (والذين إذا فعلوا فاحشة...)[13].

13. في بداية الآية عبارة تتعلق بالآيات السابقة، ويكون التقدير (لئلا تقول نفس) أو (حذراً أن تقول نفس) وفي الحالة الثانية تكـون مفعولا له لعبارة (أنيبوا واسـلموا واتبعوا). (إن) في عبارة (وإن كنت لمن السـاخرين) مخففة مـن الثقيلة إذ أنّها كانت في الأصل، (إنّي كنت من الساخرين).

الظاهـر أنّ تـلاوة جبرائيل لهذه الآية هنـا لم تكن لأوّل مرّة كي تعدّ من أسـباب النّـزول، وإنّما هـي آية مكررة ونزلت من قبـل، وتكرارها إنّما هـو للتأكيد وجلب الانتبـاه أكـثر، وإعلان عن قبـول توبة ذلك الرجل المذنب. ونكـرر مرّة اُخرى: إن مثل أُولئك الأشخاص الذين يحملون على أكتافهم ذنوباً ثقيلة عليهم أداء واجبات كثيرة لمحو آثار الماضي.

وقـد ذكر «الفخر الرازي» أسـباباً اُخرى لنزول هذه الآيـات إذ قال: إنّها نزلت في أهل مكّة حيث قالوا: يزعم محمّد أنّ من عبد الأوثان وقتل النفس لم يغفر له، وقد عبدنا وقتلنا، فكيف نسلم؟![14].

14. رغم أنّ المتحدّث هي النفس وهي مؤنث، وأنّ القرآن أورد أوصـافها وأفعالها بصـيغة المؤنث في آياته،ولكن في هذه الآية ورد ضـمير (كذبت) وما بعدها بصـيغة المذكر، وذلك لأنّ المقصـود هنا هو الإنسان، وقد قال البعض: إنّ (النفس) يمكن أن تأتي بصيغتي المذكر والمؤنث.

الآيـــــــــــات 56 - 59

أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَحَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ(56) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِى لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ(57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ(58) بَلَى قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَفِرِينَ(59)

التّفسير

الندم لا ينفع في ذلك اليوم:

الآيات السابقة أكّدت على التوبة وإصلاح الذات وإصلاح الأعمال السابقة، وآيات بحثنا الحالي تواصل التطرق لذلك الموضوع، ففي البداية تقول: (أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين)[1].

«يا حسرتا»: هي في الأصل (يا حسرتي)، (حسرة أضيفت إليها ياء المتكلم)، والتحسر معناه الحزن ممّا فات وقته لانحساره ممّا لا يمكن استدراكه.

ويرى الراغب في مفرداته (يا حسرتا) من مادة (حسر) على وزن (حبس) وتعني التعري والتجرد من ملابس، وبما أن الندم والحزن على ما مضى بمنزلة زوال حجب الجهل، فلا اطلاق على هذه الموارد.

1. سورة العنكبوت، الآية 65.

نعـم، فعندما يرد الانسـان إلى سـاحة المحشـر، ويرى بـأُمّ عينيه نتائـج إفراطه وإسرافه ومخالفته واتخاذه الأمور الجدية هزواً ولعباً، يصرخ فجأة (واحسرتاه) إذ يمتلـئ قلبه في تلـك اللحظات بغمّ كبير مصـحوب بندم عميـق، وهذه الحالة النفسية التي وردت في الآيات المذكورة.

أما فيما يخصّ معنى (جنب الله) هنا؟ فإنّ المفسّرين ذكروا تفاسير ومعاني كثيرة لها. وكلمة (جنب) تعني في اللغة «الخاصرة»، كما تطلق على كلّ شيء يستقر إلى جانب شيء آخر، مثلما أن اليمين واليسار يعنيان الطرف الأيمن والأيسر للجسم، ثمّ يقال لكل شيء في يسار أو يمين الجسم، وهنا (جنب الله) تعني أن الأُمور ترجع إلى جانـب الله، فأوامره وإطاعته والتقرب إليه، والكتب السـماوية كلها نزلت من جانبه، وكلها مجموعة في هذا المعنى.

وبهـذا الترتيب فـإنّ المذنبـين يكشـفون في ذلك اليوم عـن ندامتهم وحسـرتهم وأسفهم على تقصـيرهم وتفريطهم تجاه الله سبحانه وتعالى، خاصة فيما يتعلق بسـخريتهم واسـتهزائهم بآيات الله ورسـله، لأنّ السبب الرئيسـي لتفريطهم هو العبث والسخرية من هذه الحقائق الكبيرة بدافع الجهل والغرور والتعصب.

ثمّ تضيف الآية (أو تقول لو أنّ الله هداني لكنت من المتقين).

يبـدو أنّ هذا الكلام يقوله الكافر عندما يوقف أمام ميزان الحسـاب، حيث يرى البعض يقادون إلى الجنّة وهم محملون بأعمالهم الحسـنة، وهنا يتمنى الكافر لو

أنّــه كان أحد هؤلاء المتوجهين إلى جنّة الخلد. وتضــيف الآية مرّة أُخرى (أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين).

وهذا ما يقوله الكافر -أيضاً- حينما تقوده الملائكة الموكلة بالنّار نحو جهنم، وترى عيناه نار جهنم ومنظر العذاب الأليم فيها، وهنا يتأوه من أعماق قلبه ويتوسل لكي يســمح له بالعودة مرّة أُخرى إلى الحياة الدنيا ليطهر نفســه من الأعمال الســيئة والقبيحة بأعمال صالحة تهيئه وتعده للوقوف في صفوف المحسنين والصالحين.

والملاحــظ أنّ كلّ عبارة من هذه العبارات الثلاث يقولها المجرمون عند مشــاهدة مشهد معين من عذاب يوم القيامة الرهيب.

حيث إنّهم يتحسرون على ما فرطوا في جنب الله فور دخولهم ساحة المحشر.

ويتمنون لو أنّهم فازوا بما فاز به المتقين، عندما يرون الثواب الجزيل الذي أغدقه البــارئ عزّ وجلّ على عباده المتقين. ويتوســلون إلى البــارئ عزّ وجلّ ليعيدهم إلى الحياة الدنيا ليصلحوا ماضيهم الفاسد، عندما يرون العذاب الإلهي الأليم.

القــرآن المجيــد يردّ على القول الثّاني مــن بين الأقوال الثلاثــة إذ يقول: (بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين)[2].

إنّ قولــك: لــو كانت الهداية قد شــملتني لأصــبحت من المتقين، فما هــي الهداية

2. تفسير نور الثقلين، المجلد الرابع، الصفحة 495.

الإلهية؟ هل هي غير الكتب السماوية ورسل الله، وآياته وعلاماته الصادقة في الآفاق والأنفس؟! إنّك سمعت بأذنيك وشاهدت بعينيك كلّ هذه الآيات، فما كان ردّ فعلك إزاءها غير التكذيب والتكبر والكفر!

فهل يمكن أن يعاقب البارئ عزّ وجلّ أحداً من دون أن يتمّ حجّته عليه؟ وهل كان هناك فرق بينك وبين الذين اهتدوا إلى طريق الحق من حيث المناهج التربوية الإلهية التي أُعدّت لكم ولهم؟ لهذا فأنت المقصر الرئيسي، وأنت بنفسك جلبت اللعنة إليك!. فمن بين تلك الأعمال الثلاثة يعد (الاستكبار) الجذر الرئيسي، ومن بعد يأتي التكذيب بآيات الله، وحصيلة الاثنين هو الكفر وعدم الإيمان.

ولكن لماذا لم يجيب القرآن على القول الأول؟

الجواب: لأنّ هناك حقيقة لا مناص منها، وهي أنّهم يجب أن يتحسروا ويغرقوا في الغم والهم.

وأما بشأن قولهم الثّالث الذي يتوسلون فيه إلى البارئ عزّ وجلّ كي يسمح لهم بالعودة إلى الحياة الدنيا، فإنّ القرآن الكريم يجيبهم في عدّة آيات منها الآية(28) من سورة الأنعام: (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون) والآية(100) من سورة المؤمنون، ولا حاجة لتكرار تلك الأجوبة.

والملاحظ هنا أنّ الرد على قولهم الثّاني، يمكن أن يكون في الوقت نفسه إجابة على السؤال الثّالث أيضاً، لأنّهم ماذا يهدفون من عودتهم إلى الحياة الدنيا؟ هل أنّه أمر آخر غير إتمام الحجة، في حين أنّ البارئ عزّ وجلّ أتمّ الحجة عليهم

بصورة كاملة لا نقص فيها، فانتباه المجرمين من غفلتهم فور مشاهدتهم للعذاب، إنّما هو نوع من اليقظة الاضطرارية التي لا يبقى لها أي أثر عندما يعودون إلى حالتهم الطبيعية. حقاً إنّه نفس الموضوع الذي يشير إليه القرآن الكريم بشأن الكافرين والمشركين الذين يدعون الله مخلصين له الدين عندما يبتلون بخطر ما في وسط البحر المتلاطم الأمواج، ثمّ ينسون الله بمجرّد أن ينجيهم ويوصلهم بسلام إلى ساحل النجاة (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون)[3].

ملاحظتان

1 - التفريط في جنب الله

قلنا: إنّ (جنب الله) التي وردت في آيات بحثنا لها معان واسعة، تشمل كلّ ما يرتبط بالله سبحانه وتعالى، وبهذا الشكل فإنّ التفريط في جنب الله يشمل كلّ أنواع التفريط في طاعة أوامر الله، واتباع ما جاء في الكتب السماوية، والتأسي بالأنبياء والأولياء.

ولهذا السبب ورد في العديد من روايات أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) أنّ الأئمّة الأطهار هم المقصودون بـ (جنب الله)، ومن تلك الروايات ما ورد في أصول الكافي نقلا عن الإمام موسى الكاظم(ع) إذ قال في تفسير: (يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله): «جنب الله أمير المؤمنين وكذلك من كان بعده من الأوصياء بالمكان الرفيع إلى أن ينتهي الأمر إلى آخرهم»[4].

3. تفسير نور الثقلين المجلد الرابع الصفحة 495.
4. المصدر السابق، ص 496.

كما نقرأ في تفسير علي بن إبراهيم نقلا عن الإمام الصادق(ع): «نحن جنب الله»[5]. والمعنى ذاته ورد في روايات أُخرى لأئمّة أهل البيت الأطهار (عليهم السلام). وكما قلنا مراراً فإنّ هذه التفاسير إنّما هي من قبيل بيان المصاديق الواضحة، لأنّ من المسلّم أنّ اتباع نهج الأئمّة إنّما هو اتباع للرسول وطاعة لله، إذ أنّ الأئمة عليهم السلام لا ينطقون بشيء من عندهم.

وفي حديث آخر تمّ تعريف العلماء غير العالمين بأنّهم مصداق واضح للمتحسرين، حيث ورد في كتاب (المحاسن) حديث للإمام الباقر(ع)، جاء فيه: «إن أشد الناس حسرة يوم القيامة الذين وصفوا بالعدل ثمّ خالفوه، وهو قول الله عزّ وجلّ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله»[6].

2 - على أعتاب الموت أو القيامة؟

هل أنّ تلك الأقوال الثلاثة قالها المجرمون عندما شاهدوا العذاب الإلهي في الدنيا وهو عذاب الاستئصال والهلاك في نهاية أعمارهم؟ أم عن زمان دخولهم ساحة القيامة؟

المعنى الثّاني أنسب، لأنّ الآيات السابقة تتحدث عن عذاب الاستئصال والآية التالية تتحدث عن يوم القيامة، والشاهد على هذا القول هو الآية (31) من سورة الأنعام التي تقول: (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها).

والروايات المذكورة أعلاه خير شاهد على هذا المعنى.

5. الاعتقادات الإمامية، نقلا عن تفسير نور الثقلين، المجلد 4، الصفحة 496، ونفس المعنى نقل عن تفسير علي بن إبراهيم وكتاب الكافي (يراجع المجلد الأوّل من كتاب الكافي (باب من ادعى الإمامة وليس لها بأهل) الحديث الأوّل والثّالث).
6. مجمع البيان ذيل آية البحث.

الآيـــــــــــات 60 - 64

وَيَـوْمَ الْقِيَمَـةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللّهِ وُجُوهُهُمْ مُّسْـوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِيـنَ(60) وَيُنَجِّـى اللّهُ الَّذِيـنَ اتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لاَ يَمَسُّـهُمُ السُّـوءُ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُـونَ(61) اللّهُ خَلِـقُ كُلِّ شَـىْء وَهُـوَ عَلَـى كُلِّ شَـىْء وَكِيلٌ(62) لَّـهُ مَقَالِيدُ السَّـمَوَتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَتِ اللّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَسِـرُون(63) قُلْ أَفَغَيْرَ اللّهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَهِلُونَ(64)

التّفسير

الله خالق كلّ شيء وحافظه:

الآيات السـابقة تتحدث عن المشـركين الكذابين والمسـتكبرين الذين يندمون يوم القيامـة على ما قدمت أيديهم ويتوسـلون لإعادتهم إلى الدنيـا، ولكن هيهات أن يسـتجاب لهم طلبهم، وآيات بحثنا هذه تواصل الحديث عن هذا الأمر، إذ تقول: (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة).

ثم تضيف (أليس في جهنم مثوى للمتكبرين).

لا شـكّ أن عبـارة (كذبوا علـى الله) لها مفاهيم ومعان واسـعة وعميقة، لكن الآية -هنا- تستهدف أُولئك الذين قالوا بوجود شريك لله، أو باتخاذ الله ولداً من الملائكة

أو الذين يزعمون أنّ المسيح(ع) هو ابن الله، وأمثال هذه المزاعم والادعاءات.

وكلمة «مستكبر» تطلق دائماً على أُولئك الذين يرون أنفسهم ذات شأن وقدر كبير، ولكـن المراد منهـا -هنا- أُولئك الذين يسـتكبرون على الأنبيـاء، والذين يتركون اتباع الشريعة الحقة، ويرفضون قبولها واتباعها.

اسـوداد وجوه الكاذبين يوم القيامة دليل على ذلتهم وهوانهم وافتضـاحهم، وكما هو معروف فإن سـاحة القيامة هي سـاحة ظهور الأسرار والخفايا وتجسيد أعمال وأفكار الإنسان، فالذين كانت قلوبهم سوداء ومظلمة في الدنيا، وأعمالهم وأفكارهم سـوداء ومظلمة أيضـاً، يخرج هذا السـواد والظلام من أعماقهم إلى خارجهم في يوم القيامة ليطفح على وجوههم التي تكون في ذلك اليوم مسودّة ومظلمة.

وبعبـارة أُخرى فإنّ ظاهر الإنسـان يطابق باطنه يوم القيامـة، ولون الوجه يكون بلـون القلـب، فالذي قلبه أسـود ومظلم، يكـون وجهه مظلماً وأسـود، والذي قلبه ساطع بالنور يكون وجهه كذلك ساطعاً بالنور.

وهـو ما ورد في الآيتين(106) و(107) من سـورة آل عمـران (يوم تبيض وجوه وتسـود وجوه فأمّا الذين أسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون).

والملفت للنظر أنّه قد ورد في بعض الروايات أهل البيت عليهم السـلام، أن الكذب على الله، الذي هو أحد أسـباب اسوداد الوجه يوم القيامة، له معان واسعة تشمل حتـى الادعـاء بالإمامة والقيـادة كذباً، كما ذكر ذلك الشـيخ الصـدوق في كتاب (الاعتقادات) نقلا عن الإمام الصـادق(ع) عندما أجاب الإمام علي سؤال يتعلق

بتفسير هذه الآية، وقال: «من زعم أنّه إمام وليس بإمام، قيل: وإن كان علوياً فاطمياً؟ قال: وإن كان علوياً فاطمياً»[1].

وهذا في الحقيقة بيان لمصداق بارز، لأنّ الادعاء المزيف بالإمامة والقيادة الإلهية هو أوضح مصاديق الكذب على الله. وكذلك فإنّ من نسب إلى رسول الله(ص) أو إلى الإمام المعصوم حديثاً مختلقاً، اعتبر كاذباً على الله، لأنّهم لا ينطقون عن الهوى.

لهذا فقد ورد في حديث عن الإمام الصادق(ع): «من تحدث عنّا بحديث فنحن سائلوه عنه يوماً فإن صدق علينا فإنّما يصدق على الله وعلى رسوله، وإن كذب علينا فإنّه يكذب على الله ورسوله، لأنّا إذا حدثنا لا نقول قال فلان وقال فلان، إنّما نقول قال الله وقال رسوله ثمّ تلا هذه الآية (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة...)[2].

الحديث المذكور يبيّن بصورة واضحة أنّ أئمة أهل البيت الأطهار، لم يقولوا شيئاً من عندهم، وأن كلّ الأحاديث التي وردت عنهم صحيحة وموثوقة، لأنّها تعود إلى رسول الله(ص)، وهذه الحقيقة مهمّة جداً، وعلى علماء الإسلام أن يلتفتوا إليها، فالذين لا يقبلون بإمامة أهل البيت عليهم السلام، عليهم أن يقبلوا بأن الأحاديث التي يرويها أئمّة أهل البيت(عليهم السلام)، إنّما هي منقولة عن رسول الله(ص).

وبهذا الشأن ورد في كتاب الكافي حديث آخر عن الإمام الصادق(ع):

1. أصول الكافي، المجلد 1، صفحة 51 (باب رواية الكتب والأحاديث) الحديث 14.
2. البقرة، 34.

«حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله، وحديث رسول الله قول الله عزّ وجلّ»[3].

هذا الكلام يدعو إلى الإمعان والتأمل أكثر في آيات القرآن المجيد، لأن التكبر هو المصدر الرئيس للكفر، كما نقرأ ذلك بشأن الشيطان (أبى واستكبر وكان من الكافرين)[4]. ولهذا السبب فلا يمكن أن يكون للمستكبرين مكان آخر غير جهنم ليحترقوا بنارها، وقد ورد في حديث لرسول الله(ص): «إنّ في جهنم لواد للمتكبرين يقال له سقر، شكى إلى الله عزّ وجلّ شدة حرّه، وسأله أن يتنفس فأذن له فتنفس فاحرق جهنم»[5].

الآية التالية تتحدث عن طائفة تقابل الطائفة السابقة، حيث تتحدث عن المتقين وابتهاجهم في يوم القيامة، إذ تقول: (وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم)[6]. ثم توضح فوزهم وانتصارهم من خلال جملتين قصيرتين مفعمتين بالمعاني، (لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون).

3. تفسير علي بن إبراهيم، نقلا عن تفسير نور الثقلين، المجلد 4، الصفحة 496، كما ورد نفس المعنى في تفسير الصافي في ذيل آيات البحث.

4. «مفازة»: مصدر ميمي بمعنى الفوز والظفر، و(الباء) في (بمفازتهم) للملابسة أو السببية، وبالنسبة إلى الحالة الأولى يكون المعنى إن الله يعطيهم النجاة المقترنة بالإخلاص والفلاح، أمّا بالنسبة إلى الحالة الثانية فالمعنى يكون (إن الله أنقذهم ونجاهم بسبب إخلاصهم) كناية عن الأعمال الصالحة والإيمان..

5. تفسير القرطبي، المجلد الثامن، الصفحة 5719، وتفسير أبو الفتوح الرازي، المجلد 9، الصفحة 417 ذيل آيات البحث (مع اختصار ذيل الحديث).

6. نور الثقلين، المجلد 49، الصفحة 497.

نعـم، إنّهم يعيشـون في عالم لا يوجد فيه سـوى الخير والطهارة والسـرور، وهذه العبارة القصـيرة جمعت -حقّاً- كلّ الهبات الإلهية فيها. الآية التالية تتطرق من جديد إلى مسألة التوحيد والجهاد ضدّ الشرك، وتواصل مجادلة المشركين، حيث تقول: (الله خالق كلّ شيء وهو على كل شيء وكيل).

العبـارة الأولى في هـذه الآيـة تشـير إلى (توحـد الله في الخلق) والثانية تشـير إلى (توحـده في الربوبيـة). فمسـألة (توحده في الخلق) هـي حقيقة اعترف بها حتى المشـركون، كما ورد في الآية (38) من السـورة هذه (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله).

ولكنّهـم ابتلـوا بالانحراف فيما يتعلق بمسـألة (توحده في الربوبيـة)، ففي بعض الأحيـان اعتبروا الأصـنام هي التـي تحفظهم وتحميهـم وتدبر أمرهـم، وكانوا يلجؤون إليها عندما يواجهون أي مشكلة. والقرآن المجيد -من خلال الآية المذكورة أعلاه- يشـير إلى حقيقة أنّ تدبير أُمور الكـون وحفظه هي بيد خالقه، وليس بيد أحد آخر، ولهذا يجب اللجوء إليه دائماً.

وقد ذكر «ابن منظور» في كتاب (لسان العرب) معاني متعددة لكلمة (وكيل) منها: الكفيل، والحافظ، والمدبر للأمر. ومن هنا يتضـح أنّ الأصنام ليست مصدر خير أو شـر، وأنّها عاجزة عن حل أبسط عقدة، حيث إنّها موجودات ضعيفة وعاجزة، ولا يمكن أن تقدم أدنى فائدة للإنسان.

وقـد عمـد بعض المؤيدين للمذهب الجبري إلى الاسـتدلال علـى بعض الأمور من

عبـارة (الله خالق كلّ شـيء) لتأكيد ما جـاء في معتقداتهم المنحرفـة، إذ قالوا: إنّ هذه الآية تشـمل الأعمال أيضـاً، ولهذا فإنّ أعمالنا تعد من خلق الله، رغم أنّ أعضاءنا هي التي تقوم بها.

إنّ خطأ أُولئك هو أنّهم لم يدركوا هذه الحقيقة جيداً، وهي أنّ خالقية الله سبحانه وتعـالى لا يوجد فيها أي تعارضـ مع حرية الإرادة والاختيار لدينا، لأنّ التناسـب فيمـا بينهما طولي وليس عرضـي. فأعمالنا تتعلق بالله، وتتعلق بنا أيضـاً، لأنّه لا يوجد هناك شيء في هذا الكون يمكن أن يكون خارج إطار سلطة البارئ عزّ وجلّ، وعلى هذا الأساس فإن أعمالنا هي من خلقه، وإنه أعطانا القدرة والعقل والاختيار والإرادة وحريـة العمل، ومن هذه الناحية يمكن أن ننسـب أعمالنا إليه، حيث إنّه أراد أن نكون أحراراً وننفذ الأعمال باختيارنا، كما أنّه وضـع كلّ ما نحتاجه تحت تصـرفنا. لكننا في الحال ذاته أحرار مخيرون في تنفيذ الأعمال، وعلى ذلك فإنّ أفعالنا منسوبة إلينا ونحن المسؤولون عنها.

فإذا قال أحد: إنّ الإنسـان يخلق أعماله، ولا دخل لله عزّ وجلّ فيها، فإنّه قد أشـرك لأنّـه في هذه الحالة يعتقد بوجود خالقين، خالق كبير وخالق صـغير، وإذا قال آخر: إنّ أعمالنـا هـي من خلق الله ولا دخل لنـا فيها، فقد انحرف، لأنّـه أنكر بقوله هذا حكمة وعدالة الله، إذ لا يصـح أن يجبرنا في الأعمال، ثمّ يحمّلنا مسـؤوليتها! لأنّ في هذه الحالة، يصبح الجزاء والثواب والحساب والمعاد والتكليف والمسؤولية كلّها عبثاً.

لذا فإن الاعتقاد الإسلامي الصحيح والذي يمكن أن يستشف من مجموع آيات القرآن المجيد، هو أن كلّ أعمالنا منسوبة لله وإلينا، وهذه النسبة لا يوجد فيها أي تعارض، لأنّها طولية وليست عرضية.

أمّا الآية التالية فقد تطرقت (توحيد الله في المالكية) لتكمل بحث التوحيد الذي ورد في الآيات السابقة، إذ تقول: (له مقاليد السماوات والأرض).

«مقاليد»: كما يقول أغلب اللغويين، جمع (مقليد) (مع أن الزمخشري يقول في الكشاف: إن هذه الكلمة ليس لها مفرد من لفظها) و(مقليد) و(إقليد) كلاهما تعني المفتاح، وعلى حدّ قول صاحب كتاب (لسان العرب) وآخرين غيره فإن كلمة (مقليد) مأخوذة من (كليد) الفارسية الأصل، ومن العربية تستعمل بنفس المعنى، ولذا فإن (مقاليد السماوات والأرض) تعني مفاتيح السماوات والأرض.

هذه العبارة تستخدم ككناية عن امتلاك شيء ما أو التسلط عليه كأنّ يقول أحد: مفتاح هذا العمل بيد فلان. لذا فإنّ الآية المذكورة أعلاه يمكن أن تشير إلى (وحدانية الله في الملك) وفي نفس الوقت تشير إلى وحدانيته في التدبير والربوبية والحاكمية على هذا العالم الكوني.

ولهذا السبب أوردت الآية المذكورة بمثابة استنتاج (والذين كفروا بآيات الله أُولئك هم الخاسرون). لأنّهم تركوا المصدر الرئيسي والمنبع الحقيقي لكل الخيرات

والبركات وتاهوا في صحاري الضلال عندما أعرضوا بوجوههم عن مالك مفاتيح السماوات والأرض، وتوجهوا نحو موجودات عاجزة تماماً عن تقديم أدنى عمل لهم.

وقد ورد في حديث عن أمير المؤمنين(ع) أنّه طلب من رسول الله(ص) توضيح معنى كلمة (مقاليد) فقال رسول الله(ص): «يا علي، لقد سألت عن عظيم المقاليد، هو أن تقول عشراً إذا أصبحت، وعشراً إذا أمسيت، لا إله الاّ الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله واستغفر الله ولا قوة إلا بالله (هو) الأوّل والآخر والظاهر والباطن له الملك وله الحمد (يحيي ويميت) بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير».

ثم أضاف: «من قالها عشراً إذا أصبح، وعشراً إذا أمسى، أعطاه الله خصالا ستاً... أوّلها يحرسه من الشيطان وجنوده فلا يكون لهم عليه سلطان». أمّا من ردد هذه الكلمات بصورة سطحية فإنّه -حتماً- لا يستحق كل، هذه المكافآت، فيجب الإيمان بمحتواها والتخلق بها.

هذا الحديث يمكن أن يشير إلى أسماء الله الحسنى التي هي أصل الحاكمية والمالكية لهذا العالم الكوني.

من مجموع كلّ الأُمور التي ذكرناها في الآيات السابقة بشأن فروع التوحيد، يمكن الحصول على نتيجة جيدة، وهي أنّ التوحيد في العبادة هو حقيقة لا يمكن نكرانها وعلى كلّ إنسان عاقل أن لا يسمح لنفسه بالسجود للأصنام، ولهذا فإن البحث ينتهي بآية تتحدث بلهجة حازمة ومتشددة (قل أفغير الله تأمرونّي أعبد أيّها الجاهلون).

هذه الآية -وبالنظر إلى أنّ المشركين والكفرة كانوا أحياناً يدعون رسول الله (ص) إلى احترام آلهتهم وعبادتها، أو على الأقل عدم الانتقاص منها أو النهي عن عبادتها- أعلنت وبمنتهى الصراحة أنّ مسألة توحيد الله وعدم الإشراك به هي مسألة لا تقبل المساومة والاستسلام أبداً، إذ يجب أن تزال كل أشكال الشرك وتمحى من على وجه الأرض. فالآية تعني أنّ عبدة الأصنام على العموم هم أناس جهلة، لأنّهم لا يجهلون فقط البارئ عزّ وجلّ، بل يجهلون حتى مرتبة الإنسان الرفيعة.

إنّ التعبير بـ «تأمروني»، الذي ورد -في الآية الآنفة- يشير إلى أنّ الجهلة كانوا يأمرون رسول الله (ص) بأن يعبد أصنامهم بدون أيّ دليل منطقي، وهذا الموقف ليس بعجيب من أفراد جهلة.

أليس من الجهل والغباء أن يترك الإنسان عبادة البارئ عزّ وجلّ رغم مشاهدته للكثير من الأدلّة في هذا العالم والتي تدلّ على علمه وقدرته وتدبيره وحكمته، ثمّ يتمسّك بعبادة موجودات تافهة لا قيمة لها وعاجزة عن تقديم أدنى مساعدة وعون لعبدتها.

الآيـــــــــــات 65 - 67

وَلَقَـدْ أُوحِـيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْـرَكْتَ لَيَحْبَطَـنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِـنَ الْخَسِـرِينَ(65) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُـدْ وَكُنْ مِّنَ الشَّـكِرِينَ(66) وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَـتُهُ يَوْمَ الْقِيَـمَةِ وَالسَّـمَوتُ مَطْوِيَّـتُ بِيَمِينِهِ سُبْحَـنَهُ وَتَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(67)

التّفسير

الشرك محبط للأعمال:

آيات بحثنا تواصـل التطرق للمسـائل المتعلقة بالشـرك والتوحيـد والتي كانت قد استعرضت في الآيات السابقة أيضاً.

الآية الأولى تتحدث بلهجة قاطعة وشديدة حول أخطار الشرك، وتقول: (ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين).

وبهذا الترتيب، فإنّ للشـرك نتيجتين خطيرتين، تشـملان حتى أنبياء الله في مالو أصـبحوا مشركين -على فرض المحال- النتيجة الأولى: إحباط الأعمال، والثانية: الخسران والضياع. وإحباط الأعمال يعني محو آثار ثواب الأعمال السابقة، وذلك بعد كفره وشـركه بالله، لأنّ شرط قبول الأعمال هو الاعتقاد بأصل التوحيد، ولا يقبل أي عمل بدون هذا الاعتقاد.

فالشرك هو النّار التي تحرق شجرة أعمال الإنسان.

والشرك هو الصاعقة التي تهلك كلّ ما جمعه الإنسان خلال فترة حياته.

والشـرك هو عاصفة هوجاء تدمر كلّ أعمال الإنسـان وتأخذها معها، كما ورد في الآية(18) من سـورة إبراهيم (مثل الذين كفروا بربّهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون ممّا كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد).

لـذا ورد في حديـث عن رسـول الله(ص): «إن الله تعالى يحاسـب كلّ خلق إلاّ من أشـرك بالله فإنّه لا يحاسـب و يؤمر به إلى النّار»[1]. وأمّا خسارتهم فإنّها بسبب بيعهـم أكبر ثـروة يمتلكونهـا، ألا وهي العقـل والإدراك والعمر في سـوق التجارة الدنيوية، وشراؤهم الحسرة والألم بثمنها.

وهنا يطرح هذا السؤال: هل من الممكن أن يسير الأنبياء العظام في طريق الشرك حتى تخاطبهم الآية الآنفة بهذه اللهجة؟

الجواب على هذا السؤال واضح، وهو أنّ الأنبياء لم يشركوا قطّ، مع أنّهم يمتلكون القـدرة والاختيـار الكاملين في هـذا الأمر، ومعصـوميتهم لا تعني سـلب القدرة والاختيار منهم، إلاّ أنّ علمهم الغزير وارتباطهم المباشـر والمستمر مع البارئ عزّ وجـلّ يمنعهم حتـى من التفكير ولو للحظة واحدة بالشـرك، فهل يمكن أن يتناول السـمّ طبيـب عالم وحـاذق ومطلع بصـورة جيدة علـى تأثير تلك المادة السـامة والخطرة، وهو في حالة طبيعية؟!

1. (الفـاء) في (فاعبـد) زائدة للتأكيد على مـا قيل، وقال البعض: إنّها (فاء) الجزاء وقد حذف شـرطه والتقدير (إن كنت عابداً فاعبد الله)، ثمّ حذف الشرط، وقدم المفعول مكانه.

الهـدف هو إطـلاع الجميع على خطر الشـرك، فعندما يخاطب البـارئ عزّ وجلّ أنبياء العظام بهذه اللهجة الشديدة، فعلى الأمة أن تحسب حسابها، هذا الأسلوب من قبيل ما نصّ عليه المثل المعروف (إيّاك أعني واسمعي يا جارة). ونفس المعنى ورد في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا(ع) أثناء إجابته على سؤال وجهه إليـه المأمـون، إذ قال: يا بن رسـول الله أليس من قولك أن الأنبياء معصـومون؟ قال(ع): «بلى» قال: فما معنى قول الله إلى أن قال: فأخبرني عن قول الله: (عفى الله عنك لم أذنت لهم).

قال الرضا(ع): «هذا ممّا نزل بإيّاك أعني واسمعي يا جارة، خاطب الله بذلك نبيّه وأراد به أمته» وكذلك قوله: (لئن أشـركت ليحبطن عملك...) وقوله تعالى: (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا) قال: صدقت يا بن رسول الله[2].

الآية التالية تضيف للتأكيد أكثر (بل الله فاعبد وكن من الشاكرين)[3].

تقديم اسـم الجلالة للدلالة على الحصر، وذلك يعني أن ذات الله المنزهة يجب أن تكـون معبـودك الوحيد، ثمّ تأمر الآية بالشـكر، لأن الشـكر علـى النعم التي أُغدقت على الإنسـان هي سـلم يؤدي إلى معرفة الله، ونفي كلّ أشـكال الشرك، فالشـكر على النعم من الأمور الفطرية عند الإنسـان، وقبل الشـكر يجب معرفة

2. الآيات التي ورد فيها ما يشير إلى النفخ في الصور هي: (الكهف ـ 99) و(المؤمنون ـ (101)، (يس ـ 51)، (الزمر ـ 68)، (ق ـ 20)، (الحاقة ـ 13)، (الأنعام ـ 73)، (طه ـ 102)، (النمل ـ 87)، (النبأ ـ 18).
3. المدثر، الآية 8.

المنعـم، وهنا فإن خط الشـكر يـؤدي إلى خط التوحيد، وينكشـف بطلان عبادة الاصنام التي لا تهب للإنسان آية نعمة.

الآية الأخيرة في بحثنا هذا تكشـف عن الجذر الرئيسي لانحرافهم، وتقول: (وما قدروا الله حق قدره). ولهذا تنزلوا باسمه المقدس حتى جعلوه رديفاً للأوثان!!

نعم، فمصدر الشرك هو عدم معرفة البارئ عزّ وجلّ بصورة صحيحة، فالذي يعلم:

أوّلا: أنّ الله مطلق وغير محدود من جميع النواحي.

وثانياً: أنّه خالق كلّ الموجودات التي تحتاج إليه في كلّ لحظة من لحظات وجودها.

وثالثاً: أنّه يدير الكون ويحل كلّ عقد المشـاكل، وأنّ الأرزاق بيده، وحتى الشفاعة إنّما تتمّ بإذنه وأمره، فما معنى توجه من يعلم بكلّ هذه الحقائق إلى غير الله.

وأساسـاً فإنّ وجود مثل هذه الصفات في موجودين اثنين أمر محال، لأنّه من غير الممكن عقلا وجود موجودين مطلقين من جميع الجهات.

ثمّ يأتي القرآن بعبارتين كنائيتين بعد **العبارة السابقة**، وذلك لبيان عظمة وقدرة البـارئ عزّ وجلّ، إذ يقول كلام الله المجيد: (والأرض جميعاً قبضـته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه).

«القبضـة»: الشـيء الذي يقبض عليه بجميع الكف، تستخدم -عادة- للتعبير عن القدرة المطلقة والتسـلط التام، مثلما نقول في الاصطلاحات اليومية الدارجة: إن

المدينة الفلانية هي بيدي، أو الملك الفلاني هو بيدي وفي قبضتي.

«مطويـات»: من مادة (طي) وتعني الثني، والتي تسـتعمل أحياناً كناية عن الوفاة وانقضاء العمر، أو عن عبور شيء ما.

والعبـارة المذكـورة أعـلاه اسـتخدمت بصـورة واضـحة بشـأن السـماوات في الآية(104) من سورة الأنبياء (يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب).

فالذي يثني طوماراً ويحمله بيده اليمنى يسيطر بصورة كاملة على الطومار الذي يحملـه بتلك اليد، وانتخبت اليد اليمنى هنا لأن أكثر الأشـخاص يؤدون أعمالهم المهمّة باليد اليمنى ويحسـون بأنّها ذات قوة وقدرة أكثر. خلاصـة الكلام، أنّ كلّ هذه التشـبيهات والتعابير هي كناية عن سـلطة الله المطلقة على عالم الوجود في العالم الآخر، حتى يعلم الجميع أن مفتاح النجاة وحل المشاكل يوم القيامة هو بيد القـدرة الإلهية، كي لا يعمدوا إلى عبادة الأصـنام وغيرهـا من الآلهة بذريعة أنّها ستشفع لهم في ذلك اليوم.

ولكن هل أنّ السـماء والأرض ليسـتا في قبضـته في الحياة الدنيا؟ فلم الحديث عن الآخرة؟

الجـواب: إنّ قدرة البـارئ عزّ وجلّ تظهر وتتجلّى في ذلك اليوم أكثر من أيّ وقت مضـى، وتصل إلى مرحلة التجلّي النهائي، وكل إنسـان يدرك ويشعر أنّ كلّ شيء هو من عند الله وتحت تصـرفه. إضـافة إلى أنّ البعض اتجه إلى غير الله بذريعة أنّ أُولئك سينقذونه يوم القيامة، كما فعل المسيحيون، إذ إنّهم يعبدون عيسى(ع) متصورين أنّه سينقذهم يوم القيامة، وطبقاً لهذا فمن المناسب التحدث عن قدرة البارئ عزّ وجلّ في يوم القيامة.

ويتّضح بصورة جيدة ممّا تقدم أنّ طابع الكناية يطغى على هذه العبارات، وبسبب قصور الألفاظ المتداولة فإنّنا نجد أنفسنا مضطرين إلى صبّ تلك المعاني العميقة في قوالب هذه الألفاظ البسيطة، ولا يرد إمكانية تجسيم البارئ عزّ وجلّ من خلالها، إلاّ إذا كان الشخص الذي يتصور ذلك ذا تفكير ساذج وعقل بسيط جدّاً، حيث نفتقد ألفاظاً تبيّن مقام عظمة البارئ عزّ وجلّ بصورة واضحة، إذن فيجب الاستفادة بأقصى ما يمكن من الكنايات التي لها مفاهيم كثيرة ومتعددة.

على أي حال، فبعد التوضيحات التي ذكرت آنفاً، يعطي البارئ عزّ وجلّ في آخر الآية نتيجة مركزة وظاهرية، إذ يقول: (سبحانه وتعالى عما يشركون). فلو لم يكن بنو آدم قد أصدروا أحكامهم على ذات الله المقدسة المنزهة وفق مقاييس تفكيرهم الصغيرة والمحدودة، لما انجر أحد منهم إلى حبائل الشرك وعبادة الأصنام.

ملاحظتان

1 - مسألة إحباط الأعمال

هل يمكن حقّاً أن تحبط الأعمال الصالحة للإنسان بسبب أعمال سيئة يرتكبها؟ وهل أنّ هذه المسألة لا تتعارض مع عدالة البارئ عزّ وجلّ من جهة، ومع ظواهر الآيات التي تقول: (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)؟.

البحث في هذه المسألة طويل وعريض سواء من حيث الادلة العقلية أو النقلية، وقد أوردنا جزءاً منه في ذيل الآية(217) من سورة البقرة، وسنذكره في نهاية بعض الآيات التي تتناسب مع الموضوع في المجلدات القادمة ان شاء الله.

وممّا تجب الإشارة إليه هنا هو: إذا كان هناك شك في مسألة (إحباط الأعمال) بسبب المعاصي، فإنّه لا ينبغي أن يشكّ أبداً في تأثير الشرك على إحباط الأعمال، لأن آيات كثيرة في القرآن المجيد -أشير إلى بعضها آنفاً- تقول وبصراحة (إنّ الوفاة على الإيمان) هي شرط قبول الأعمال، وبدونها لا يقبل من الإنسان أي عمل.

فقلب المشرك كالأرض السبخة التي مهما بذرت فيها أنواع بذور الورد، ومهما هطل عليها المطر الذي هو مصدر الحياة، فإن تلك البذور سوف لن تنبت أبداً.

2 - هل عرف المؤمنون الله؟

قرأنا في الآيات الآنفة أنّ المشركين لم يعرفوا الله حق معرفته، إذ إنّهم لو عرفوه لما ساروا في طريق الشرك ومعنى هذا الكلام أن المؤمنين الموحدين هم وحدهم الذين عرفوا الله حق معرفته.

وهنا يطرح هذا السؤال وهو: كيف يتلاءم هذا الكلام مع الحديث المشهور لرسول الله(ص) والذي يقول فيه: «ما عرفناك حق معرفتك، وما عبدناك حق عبادتك».

وللجواب على هذا السؤال يجب القول: إنّ للمعرفة مراحل، أعلاها هي تلك

المعرفة التي تخص ذات الله المقدسة، والتي لا يمكن لأي أحد أن يعرفها أو يطلع عليها غير ذاته المقدسة التي تعرف كنه ذاته المقدسة، والحديث الشريف المذكور يشير إلى هذا المعنى.

أمّا بقية المراحل التي تأتي بعد هذه المرحلة والتي يمكن للعقل البشري أن يتعرف عليها، هي مرحلة معرفة صفات الله بصورة عامة ومعرفة أفعاله بصورة مفصلة، وهذه المرحلة كما ذكرنا ممكنة بالنسبة للإنسان، والمراد من معرفة الله الوصول إلى هذه المرحلة، والآية مورد بحثنا تحدثت عن هذه المرحلة، حيث إن المشركين يجهلون هذا المقدار من المعرفة أيضاً.

الآيـــــــــــــــة 68

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَتِ وَمَن فِى الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ(68)

التّفسير

(النفخ في الصور) وموت وإحياء جميع العباد:

الآيات الأخيرة في البحث السابق تحدثت عن يوم القيامة، وآية بحثنا الحالي تواصل الحديث عن ذلك اليوم مع ذكر إحدى الميزات المهمة له، إذ تبدأ الحديث بنهاية الحياة في الدنيا، وتقول: (ونفخ في الصور من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله)

يتّضح بصورة جيدة من هذه الآية أنّ حادثتين تقعان مع نهاية العالم وعند البعث، في الحادثة الأولى يموت الأحياء فوراً، وفي الحادثة الثانية -التي تقع بعد فترة من وقوع الحادثة الأولى- يعود كلّ الناس إلى الحياة مرّة أُخرى، ويقفون بانتظار الحساب.

القرآن المجيد عبّر عن هاتين الحادثتين بـ «النفخ في الصور»، وهذا التعبير كناية عن الحوادث المفاجئة والمتزامنة التي ستقع و«الصور» بمعنى البوق الذي يتخذ من

قرن الثور ويكون مجوفاً عادة حيث يستخدم مثل هذا البوق في حركة القوافل أو الجيش وتوقفها، وطبعاً هناك تفاوت بين النفخة للتحركة والنفخة للتوقف.

كما يبيّن هذا التعبير سهولة الأمر ويوضح كيف أن البارئ عزّ وجلّ -من خلال أمر بسيط وهو النفخ في الصور- يميت كلّ من في السماء والأرض، وكيف أنّه يبعثهم من جديد بنفخة صور أُخرى.

وقلنا سابقاً إنّ الألفاظ التي نستخدمها في حياتنا اليومية عاجزة عن توضيح الحقائق المتعلقة بعالم ما وراء الطبيعة أو نهاية العالم وبدء عالم آخر بدقّة، ولهذا السبب يجب الاستفادة من أوسع معاني الألفاظ الدارجة والمتداولة مع الالتفات إلى القرائن الموجودة.

توضيح:

لقد وردت تعبيرات مختلفة في القرآن المجيد عن نهاية الحياة في هذا العالم وبدء حياة أُخرى في عالم آخر، حيث ورد الحديث عن (النفخ في الصور) في أكثر من عشر آيات[1]، في إحداها استخدمت عبارة النفر في الناقور (فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير)[2] وفي بعضها استخدمت عبارة (القارعة) كما في الآيات (1 و2 و3 من سورة القارعة) (القارعة، ما القارعة، وما أدراك ما القارعة).

1. تفسير نور الثقلين، المجلد 4، الصفحة 502.
2. يرجى الانتباه إلى أنّ (صور) هي على وزن (نور)، و(صُوَر) هي على وزن (زحل) هما جمع (الصورة).

وأخيراً استخدمت في بعضها عبارة «صحيحة» والتي تعني الصوت العظيم، كما ورد ذلك في الآية (49) من سورة يس (ما ينظرون إلاّ صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) التي تتحدث عن الصيحة التي تقع في نهاية العالم وتفاجئ كل بني آدم.

أمّا الآية (53) من سورة يس (إن كانت إلاّ صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون) فإنّها تتحدث عن صيحة (الإحياء) التي تبعث الناس من جديد وتحضرهم إلى محكمة العدل الإلهية. من مجموع هذه الآيات يمكن أن يستشف بأن نهاية أهل السموات والأرض تتمّ بعد صيحة عظيمة وهي (صيحة الموت) وأنّهم يبعثون من جديد وهم قيام بصيحة عظيمة أيضاً، وهذه هي (صيحة بعث الحياة).

وأمّا كيف تكون هاتان الصيحتان؟ وما هي آثار الصيحة الأولى وتأثير الصيحة الثانية؟ فلا علم لأحد بهما إلاّ الله سبحانه وتعالى، ولذا ورد في بعض الرّوايات التي تصف (الصور) الذي ينفخ فيه «إسرافيل» في نهاية العالم، عن علي بن الحسين(ع): «وللصور رأس واحد وطرفان، وبين طرف رأس كلّ منهما إلى الآخر مثل ما بين السماء إلى الأرض...» قال: فينفخ فيه نفخة فيخرج الصوت من الطرف الذي يلي الأرض فلا يبقى في الأرض ذو روح إلاّ صعق ومات، ويخرج الصوت من الطرف الذي يلي السماوات فلا يبقى في السماوات ذو روح إلاّ صعق ومات إلاّ إسرافيل، قال: فيقول الله لإسرافيل: يا إسرافيل، مت، فيموت إسرافيل...»[3].

على أي حال، فإنّ أكثر المفسّرين اعتبروا (النفخ في الصور) كناية لطيفة عن

3. لئالي الأخبار، الصفحة 453.

كيفيـة نهايـة العالم وبـدء البعث، ولكـن مجموعة قليلة مـن المفسّـرين قالوا: إن (صور) هي جمع (صورة) وطبقاً لهذا القول، فقد اعتبروا النفخ في الصور يعني النفـخ في الوجه، مثل نفخ الروح في بدون الإنسـان، ووفق هذا التّفسـير ينفخ مرّة واحدة في وجوه بني آدم فيموتون جميعاً، وينفخ مرة أُخرى فيبعثون جميعاً[4].

هذا التّفسـير إضـافة إلى كونه لا يتطابق مع ما جاء في الروايات، فإنّه لا يتطابق أيضاً مع الآية مورد بحثنا، لأنّ الضمير في عبارة (ثم نفخ فيه أُخرى) مفرد مذكر يعود على الصور، في حين لو كان يراد منه المعنى الثّاني لكان يجب استعمال ضمير المفرد المؤنث في العبارة لتصبح (نفخ فيها).

إنّ النفـخ في الوجـه في مجال إحياء الأموات يعد أمراً مناسـباً (كما في معجزات عيسى(ع)) إلاّ أنّ هذا التعبير لا يمكن استخدامه في مجال قبض الأرواح.

بحـــــــــوث

1 - هل أنّ النفخ في الصور يتمّ مرتين، أو أكثر؟

المشـهور بين علماء المسـلمين أنّه يتمّ مرّتين فقط، وظاهر الآية يوضّح هذا أيضاً، كمـا أنّ مراجعـة آيات القـرآن الأُخرى تبيّن أنّ هناك نفختـين فقط، لكن البعض قال: إنّها ثلاث نفخات، والبعض الآخر قال: إنّها أربع.

4. علم اليقين، الصفحة 892.

وبهذا الشكل فالنفخة الأولى يقال لها نفخة (الفزع)، وهذه العبارة وردت في الآية (87) من سورة النمل (ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض).

والنفختان الثانية والثّالثة يعتبرونها للإماتة والإحياء، والتي أشير إليها في آيات بحثنا وفي آيات قرآنية أُخرى، أولاهما يطلقون عليها نفخة (الصعق) (الصعق تعني فقدان الإنسان حالة الشعور، أي يغشى عليه، وتعني أيضاً الموت) والثانية يطلق عليها نفخة (القيام).

أمّا الذين احتملوا أن النفخات أربع، فيبدو أنّهم استشفوا ذلك من الآية (53) من سورة يس والتي تقول بعد نفخة الإحياء (إن كانت صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون) وهذه النفخة هي (لجمعهم وإحضارهم). والحقيقة أنّه ليس هناك أكثر من نفختين، ومسألة الفزع والرعب العام في الواقع هي مقدمة لموت جميع البشر والذي يتم بعد النفخة الأُولى أو الصيحة الأولى، كما أن نفخة الجمع هي تتمة لنفخة الإحياء والبعث، وبهذا الشكل فلا يوجد أكثر من نفختين (نفخة الموت) و(نفخة الإحياء)، وهناك شاهد آخر على هذا القول وهو الآيتان (6 و7) من سورة النازعات، اللتان تقولان: (يوم ترجف الراجفة، تتبعها الرادفة).

2 - ما صور إسرافيل:

هناك سؤال يتبادر إلى الذهن، وهو: كيف تملأه أمواج الصور الصوتية كلّ العالم في نفس اللحظة؟ رغم أنّنا نعلم أنّ سرعة الأمواج الصوتية بطيئة ولا تتجاوز الـ(240) متراً في الثانية، في حين أنّ سرعة الضوء هي أكثر بمليون مرة من هذه السرعة إذ تبلغ (300) ألف كيلومتر في الثانية.

يجب الاعتراف في البداية بأنّ معلوماتنا بشأن هذا الموضوع هي كمعلوماتنا بشأن الكثير من المسائل المتعلقة بيوم القيامة، فهي معلومات عامة لا أكثر، إذ نجهل الكثير من تفاصيل ذلك اليوم كما قلنا.

والتدقيق في الروايات الواردة في المصادر الإسلامية بشأن تفسير كلمة (الصور) تبيّن عكس ما يتصور البعض من أنّ (الصور) هو (زمارة) أو (مزمار) أو (بوق) اعتيادي.

وقد جاء في رواية عن الإمام زين العابدين(ع) أنّه قال: «إنّ الصور قرن عظيم له رأس واحد وطرفان، وبين الطرف الأسفل الذي يلي الأرض إلى الطرف الأعلى الذي يلي السماء مثل تخوم الأرضين إلى فوق السماء السابعة، فيه أثقاب بعدد أرواح الخلائق»[5]. وفي حديث ورد عن رسول الله، جاء فيه: «الصور قرن من نور فيه أثقاب على عدد أرواح العباد»[6].

طرح مسألة النور هنا بمثابة جواب على السؤال الثّاني المذكور أعلاه، ويوضح أن الصيحة العظيمة ليست من قبيل الأمواج الصوتية الاعتيادية، وإنّما هي صيحة أعظم وأعظم، وتكون أمواجها ذات سرعة فائقة وغير طبيعية حتى أنّها أسرع من الضوء الذي يجتاز السماء والأرض بفترة زمنية قصيرة جدّاً، ففي المرّة الأولى تكون مميتة، في المرة الثانية تكون باعثة للأموات.

أمّا كيف يتسبب مثل هذا الصوت في إماتة العالمين، فإنّ كان هذا الأمر عجيباً في السابق، فإنه غير عجيب اليوم، لأننا سمعنا كثيراً بأن الأمواج الانفجارية تسببت

5. مجمع البيان ذيل آيات البحث.
6. بحار الانوار، المجلد 6، الصفحة 329.

في تمزق أجساد البعض وإصابة آخرين بالصميم، ورمي آخرين إلى مسافة بعيدة عن مكانهم، وتسببت في تدمير البيوت أيضاً، كما شاهد الكثير منّا كيف أنّ زيادة سرعة الطائرة وبعبارة أُخرى (اختراق حاجز الصوت) يولّد صوتاً مرعباً وأمواجاً مدمّرة، قد تحطم زجاج نوافذ الكثير من العمارات والبيوت.

فإذا كانت الأمواج الصوتية الصغيرة التي هي من صنع الإنسان تحدث مثل هذا التأثير، فما هي الآثار التي تتركها الصيحة الإلهية العظيمة، هي بلا شكّ انفجار عالمي كبير.

ولهذا السبب لا عجب أيضاً إن قلنا بوجود أمواج تقابل تلك الأمواج، وأنّها تهز الإنسان وتوقظه وتحييه، رغم أنّه من العسير علينا تصور هذا المعنى، ولكننا نرى دائماً كيف يوقظ النائم من نومه بواسطة الصوت، وكيف يعود الإنسان المغمى عليه إلى حالته الطبيعية بواسطة عدّة صعقات شديدة، ونكرر القول مرّة أُخرى، ونقول: إنّ علمنا المحدود لا يمكنه إدراك سوى ظلّ هذه الأُمور ومن بعيد.

3 - من هم المستثنون؟

كما مرّ علينا في الآية المبحوث عنها فإنّ كلّ أهل السموات والأرض يموتون سوى مجموعة واحدة (إلا من شاء الله) فمن هي هذه المجموعة؟ هناك اختلاف بين المفسّرين بشأن هذا الأمر: فمجموعة من المفسّرين قالوا: إنّهم ملائكة الله الكبار، كجبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، وقد أشارت رواية إلى هذا المعنى[7].

7. نور الثقلين، المجلد 4، الصفحة 503، الحديث 119.

البعض أضاف إلى أولئك الملائكة الكبار حملة عرش الله (كما وردت في رواية أُخرى)[8] ومجموعة أُخرى قالت: إنّ أرواح الشهداء مستثناة من الموت، وفقاً لما جاء في آيات القرآن المجيد (أحياء عند ربهم يرزقون) كما ورد في رواية تشير إلى هذا المعنى[9]. وبالطبع فإنّ هذه الروايات لا تتعارض مع بعضها البعض، ولكن في كلّ الصور فإنّ هذه المجموعة المتبقية تموت في نهاية الأمر، كما أوضحته تلك الرّوايات، ولا يبقى أحد حياً في هذا العالم سوى البارئ عزّ وجلّ إذ هو (حي لا يموت).

وعن كيفية موت الملائكة وأرواح الشهداء والأنبياء والأولياء، فيحتمل أنّ المراد من موت أُولئك هو قطع ارتباط الروح عن قالبها المثالي، أو تعطيل نشاط الروح المستمر.

4 - فجائية النفختين:

آيات القرآن الكريم توضح بصورة جيدة أنّ النفختين تقعان بصورة مفاجئة، والنفخة الأولى تكون فجائية بحيث أنّ مجموعة كبيرة من الناس تكون منشغلة بالتجارة والجدال والنقاش في أموالهم وبيعهم وشرائهم، وفجأة يسمعون الصيحة، فيسقطون في أماكنهم ميتين، كما صرحت بذلك الآية (29) في سورة يس (إن كانت إلاّ صيحة واحدة فإذا هم خامدون).

وأمّا (الصيحة الثانية) فإنّ آيات القرآن الكريم -ومنها الآية التي هي مورد بحثنا- تبيّن بأنّها تقع فجأة أيضاً.

8. نور الثقلين، المجلد 4، الصفحة 503، الحديث 119.
9. تفسير الصافي ذيل آية البحث.

5 - ما الفاصلة الزمنية بين النفختين؟

الآيات القرآنية لم تذكر توضيحاً حول هذا الأمر، سوى كلمة (ثم) التي وردت ضمن آية بحثنا والتي تدل على وجود فاصل زمني بين النفختين، إلاّ أنّ بعض الرّوايات ذكرت بأن هذه الفاصلة مقدارها (40) عاماً[10]. والمجهول بالنسبة لنا هو معيار هذه السنين، فهل هي سنوات اعتيادية كالتي نعيشها نحن، أم أنّها سنوات وأيّام كسنوات وأيّام القيامة.

على أي حال فالتفكر في نفخة الصور ونهاية العالم، وكذلك بالنفخة الثانية وبدء عالم جديد، ومع ملاحظة الإشارات التي وردت في القرآن المجيد، والتفاصيل الأُخرى في الرّوايات الإسلامية بهذا الشأن، يعطي دروساً تربوية عميقة للإنسان، وخاصة أنّها توضح هذه الحقيقة، وهي البقاء على استعداد دائم لاستقبال مثل هذا الحادث العظيم والرهيب في كلّ لحظة، لأنّه لم يحدد لوقوعها تاريخ معين، إذ يحتمل وقوعها في أي لحظة، إضافة إلى أنّها تقع من دون مقدمات، لذا ورد في ذيل إحدى الرّوايات الخاصة بنفخ الصور والمذكورة آنفاً أنّ الراوي قال، عندما وصل الكلام إلى هذا الأمر «رأيت علي بن الحسين يبكي عند ذلك «بكاء شديداً»، إذ كان قلقاً جدّاً من مسألة نهاية العالم ويوم القيامة، وإحضار الناس للحساب في محكمة العدل الإلهية»[11].

10. بحار الانوار، المجلد 6، الصفحة 321.
11. روح المعاني وروح البيان ذيل آية البحث.

الآيتـــــــــــان 69 - 70

وَ أَشْـرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِـعَ الْكِتَـبُ وَجِاْىءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّـهَداءِ وَقُضِـىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْس مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ(70)

التّفسير

ذلك اليوم الذي تشرق الأرض بنور ربّها:

آيتا بحثنا تواصـلان اسـتعراض الحديث عن القيامة والذي بـدأ قبل عدّة آيات، وهاتان الآيتان تضـمان سـبع عبارات منسـجمة، كلّ واحدة تتناول أمراً من أُمور المعاد، لتكمل بعضها البعض، أو أنّها تقيم دليلا على ذلك.

في البداية تقول: (وأشرقت الأرض بنور ربّها)

وقد اختلف المفسّرون في معنى إشراق الأرض بنور ربها، إذ ذكروا تفسيرات عديدة، اخترنا ثلاثاً منها، وهي:

1 - قالـت مجموعـة: إنّ المراد من نور الرب هما الحـق والعدالة، الذي ينير بهما ربّ العالمين الأرض في ذلك اليوم، حيث قال العلامة المجلسي في بحار الأنوار: «أي أضاءت الأرض بعدل ربها يوم القيامة، لأن نور الأرض بالعدل»[1].

والبعض الآخر اعتبر الحديث النبوي (الظلم ظلمات يوم القيامة) شاهداً على هذا

1. إرشـاد المفيـد والخـبر ذاته في تفسـير الصـافي ونور الثقلـين في ذيل آيـات البحث، ونفس المعنـى، ورد في المجلـد الثّاني والخمسين الصفحة 330 من بحار الأنوار للمرحوم العلاّمة المجلسي، مع شيء من الاختصار.

المعنى[2] فيما قال «الزمخشري» في تفسيره الكشاف: (وأشرقت الأرض بما يقيمه فيها من الحق والعدل ويبسطه من القسط في الحساب ووزن الحسنات والسيئات).

2 - البعض الآخر يعتقد أنّه إشارة إلى نور غير نور الشمس والقمر، يخلقه الله في ذلك اليوم خاصة.

3 - أمّا المفسّر الكبير العلاّمة الطباطبائي أعلى الله مقامه الشريف صاحب تفسير الميزان فقد قال: إنّ المراد من إشراق الأرض بنور ربّها هو ما يخصّ يوم القيامة من انكشاف الغطاء وظهور الأشياء بحقائقها وبدو الأعمال من خير أو طاعة أو معصية أو حق أو باطل للناظرين. وقد استدل العلاّمة الطباطبائي على هذا الرأي بالآية (22) من سورة (ق) (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد). وهذا الإشراق -وإن كان عاماً لكل شيء يسعه النور- لكن لما كان الغرض بيان ما للأرض وأهلها يومئذ من الشأن خصها بالبيان.

وبالطبع فإن هذه التفاسير لا تتعارض فيما بينها، ويمكن القول بصحتها جميعاً، مع أن التّفسيرين الأوّل والثّالث أنسب من غيرهما. ومن دون شك فإنّ هذه الآية تتعلق بيوم القيامة، وإن وجدنا بعض روايات أهل البيت الأطهار (عليهم السلام) تفسّرها على أنّها تعود إلى ظهور القائم المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف، فهي في الواقع نوع من التطبيق والتشبيه، وتأكيد لهذا المعنى، وهو عند ظهور المهدي (عج) تصبح الدنيا نموذجاً حياً من مشاهد القيامة، إذ يملأ هذا الإمام بالحق ونائب الرّسول الأكرم وخليفة الله الأرض بالعدل إلى الحد الذي ترتضيه الحياة الدنيا.

2. «خزنة» جمع (خازن) من مادة (خزن) على وزن (جزم) وتعني حافظ الشيء، و(خازن) تطلق على المحافظ والحارس.

ونقل (المفضـل بن عمر) عن الإمام الصادق(ع) «إذا قام قائمنا أشرقت الأرض بنور ربّها واستغنى العباد عن ضوء الشمس وذهبت الظلمة»([3]).

العبارة الثّانية في هذه الآية تتحدث عن صحائف الأعمال، إذ تقول: (ووضع الكتاب).

الصـحائف التي تتضمن جميع صغائر وكبائر أعمال الإنسـان، وكما يقول القرآن المجيد في الآية (49) من سورة الكهف (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها).

وتضـيف العبـارات التـي تتحـدث عن الشـهود (وجـيء بالنّبيين والشـهداء). فالأنبياء يحضرون ليسألوا عن أدائهم مهام الرسالة، كما ورد في الآية (السادسة) من سـورة الأعراف (ولنسـألن المرسلين)، كما يحضر شهداء الأعمال في محكمة العدل الإلهية ليدلوا بشهاداتهم، صحيح أن البارئ عزّ وجلّ مطلع على كلّ الأُمور، ولكن للتأكيد على مقام العدالة يدعو شهداء الأعمال للحضور في تلك المحكمة.

ذكر المفسّـرون آراء عديدة بشأن أولئك الشهداء على الأعمال، حيث قال البعض: إنّهم الصالحون والطاهرون والعادلون في الأمّة، الذين يشهدون على أداء الأنبياء لرسـالتهم، وعلى أعمال الناس الذين كانوا يعاصـرونهم، و(الأئمة المعصومون) هـم في طليعـة شـهداء الأعمال. في حـين يعتقد البعض الآخر بـأنّ الملائكة هم الشـهداء على أعمال الإنسان، والآية (21) في سورة (ق) تعطي الدليل على هذا المعنى (وجاءت كلّ نفس معها سائق وشهيد).

وقال البعض: إن أعضـاء بدن الإنسـان ومكان وزمان الطاعة والمعصية هم الذين يشهدون على الإنسان يوم القيامة.

3. «يتلون» و«ينذرون»: كليهما فعل مضارع ودليل على الاستمرارية.

ويبدو أن كلمة (شـهداء) لها معان واسـعة، أشـار كلّ مفسـر إلى جانب منها في تفسـيره. واحتمل البعض أنّها تخص «الشـهداء» الذين قتلوا في سبيل الله، ولكن هذا الاحتمال غير وارد وبعيد، لأن الحديث هو عن شـهداء محكمة العدل الإلهي، وليس عن شهداء طريق الحق، مع إمكانية انضمامهم إلى صفوف الشهود.

العبارة الرّابعة تقول: (وقضي بينهم بالحق).

والخامسة تضيف: (وهم لا يظلمون).

فمـن البديهيات، عندما يكون الحاكـم هو البارئ عزّ وجلّ، وتشـرق الأرض بنور عدالتـه، وتعرض صـحائف أعمال الإنسـان التـي تبيّن كلّ صـغيرة وكبيرة بدقّة، ويحضـر الأنبياء والشهود والعدول، فلا يحكم البارئ عزّ وجلّ إلا بالحق، وفي مثل هذا المحاكم لا وجود للظالم والاستبداد مطلقاً.

العبارة السادسة في الآية التالية أكملت الحديث بالقول: (ووفيت كلّ نفس ما عملت).

إنّ جـزاء الأعمال وعواقبها سـترد إليهم، وهل هناك مكافـأة ومجازاة أعلى من أن يرد عمل الإنسـان بصورة كاملة إلى الإنسان نفسه (نلفت الانتباه إلى أن كلمة (وفيت) تعني الأداء بصورة كاملة) ويبقى مرافقاً له إلى الأبد.

فالذي يتمكن من تنفيذ مثل هذه المناهج العادلة بدقّة، هو الذي أحاط علمه بكل شيء، لهذا فإن العبارة السابعة والأخيرة في هذا البحث تقول: (وهو أعلم بما يفعلون).

إذن فلا حاجة حتى للشـهود، لأنّ الله هو أعلم من كلّ أولئك الشـهود، ولكن لطفه وعدله يقتضـيان إحضـار الشـهود، نعم فهذا هو مشـهد يوم القيامة، فليسـتعد الجميع لذلك اليوم.

الآيتـــــــــان 71 - 72

وَسِـيقَ الَّذِينَ كَفَـرُواْ إِلى جَهَنَّمَ زُمَـراً حَتَّى إِذا جَآءُوهَـا فُتِحَتْ أَبْوَبُهَـا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـذَا قَالُـواْ بَلَـى وَلَـكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَفِرِينَ(71) قِيـلَ ادْخُلُواْ أَبْوَبَ جَهَنَّمَ خَـلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(72)

التّفسير

الذين يدخلون جهنم زمراً:

تواصـل الآيـات هنا بحث المعـاد، وتسـتعرض بالتفصـيل ثواب وجـزاء المؤمنين والكافرين الذي اسـتعرض بصـورة مختصـرة في الآيات السـابقة. وتبـدأ بأهل جهنم، إذ تقول: (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً).

فمن الذي يسوقهم إلى جهنم؟

كمـا هو معروف فإن ملائكة العذاب هي التي تسـوقهم حتى أبواب جهنم، ونظير هذه العبارة ورد في الآية (21) من سـورة (ق)، إذ تقول: (وجاءت كلّ نفس معها سـائق وشـهيد). عبارة «زمـر» تعني الجماعة الصـغيرة من الناس، وتوضـح أن الكافرين يساقون إلى جهنم على شكل مجموعات صغيرة ومتفرقة.

و«سيق» من مادة (سوق) وتعني (الحث على اسير).

ثم تضيف (حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربّكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا)[1].

يتّضح بصورة جيدة من خلال هذه العبارة، أن أبواب جهنم كانت مغلقة قبل سوق أُولئك الكفرة، وهي كأبواب السجون المغلقة التي تفتح أمام المتهمين الذين يراد سجنهم، وهذا لحدث المفاجئ يوجد رعباً ووحشة كبيرة في قلوب الكافرين، وقبل دخولهم يتلقاهم خزنة جهنم باللوم والتوبيخ، الذين يقولون استهجاناً وتوبيخاً لهم: لم كفرتم وقد هيئت لكم كل أسباب الهداية، ألم يرسل إليكم أنبياء منكم يتلون آيات الله عليكم باستمرار، ومعهم معجزات من خالقكم، وإنذار وإعلام بالأخطار التي ستصيبكم إن كفرتم بالله[2]؟

فكيف وصل بكم الحال إلى هذه الدرجة رغم إرسال الأنبياء إليكم؟

حقّاً إنّ كلام خزنة جهنم يعد من أشد أنواع العذاب على الكافرين الذين يواجهون بمثل هذا اللوم فور دخولهم جهنم.

على أي حال، فإنّ الكافرين يجيبون خزنة جهنم بعبارة قصيرة ملؤها الحسرات، قائلين: (قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين).

1. الم السجدة، 13.
2. نهج البلاغة، الخطبة (27).

مجموعـة من المفسّـرين الكبار اعتبروا (كلمة العذاب) إشـارة إلى قوله تعالى حين هبط آدم على الأرض، أو حينما قرر الشـيطان إغواء بني آدم، كما ورد في الآية(39) من سورة البقرة (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون).

وحينما قال الشـيطان: لأغوينهم جميعاً إلاّ عبادك المخلصين، فأجابه البارئ عزّ وجلّ (لأملأن جهنم من الجنّة والناس أجمعين)[3].

وبهذا الشـكل اعترفوا بأنّهم كذبوا الأنبياء وانكروا آيات الله، وبالطبع فإن مصيرهم لن يكون أفضل من هذا. كما يوجد احتمال في أنّ المراد من (حقّت كلمة العذاب) هو ما تعنيه الآية السابعة في سورة (يس) (لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون).

وهو إشـارة إلى أن الإنسـان يصـل أحياناً -بسـبب كـثرة ذنوبه وعدائـه ولجاجته وتعصـبه أمـام الحق- إلى درجـة يختم معها علـى قلبه ولا يبقى أمامـه أيّ طريق للعودة، وفي هذه الحالة يصـبح مستحقاً تماماً للعذاب. وعلى أيّة حال، فإن مصدر كلّ هـذه الأُمور هو عمل الإنسـان ذاته، وليس من الصـحيح الاسـتدلال على معنى الجـبر وفقـدان حرية الإرادة. هذا النقاش القصـير ينتهي مـع اقترابهم من عتبة جهنم (قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين).

3. الكافي، المجلد الثّاني، باب الكبر الحديث 6.

فأبواب جهنم -كما أشـرنا إليها من قبل- يمكن أن تكون قد نظمت حسـب أعمال الإنسان، وإن كلّ مجموعة كافرة تدخل جهنم من الباب الذي يتناسب مع أعمالها، وذلـك مثل أبواب الجنّـة التي يطلق على أحد أبوابها اسـم «باب المجاهدين» وقد جاء في كلام لأمير المؤمنين «إنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة»[4].

والـذي يلفـت النظر هو أن ملائكـة العذاب تؤّكد على مسـألة التكبر من بين بقية الصفات الرذيلة التي تؤدي بالإنسان إلى السقوط في نار جهنم، وذلك إشارة إلى أن التكبر والغرور وعدم الانصـياع والاستسـلام أمام الحق هو المصدر الرئيسي للكفر والانحراف وارتكاب الذنب.

نعم، فالتكبر ستار سميك يغطي عيني الإنسان ويحول دون رؤيته للحقائق الساطعة المضـيئة، ولهذا نقرأ في رواية عن الإمامين المعصـومين الباقر والصـادق عليهما السلام «لا يدخل الجنّة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»[5].

4. ما جواب الجملة الشـرطية (إذا جاؤوها) ؟ ذكر المفسّـرون آراء متعددة، أنسبها الذي يقول: إن عبارة (قال لهم خزنتها) جوابها والواو زائدة. كما احتملوا أن جواب الجملة محذوف، والتقدير (سلام من الله عليكم)، أو أن حذف الجواب إشارة إلى أن سعة الموضوع وعلوه لا يمكن وصفها، والبعض قال: (فتمت) هي الجواب و(الواو) زائدة.

5. تفسير القرطبي المجلد (8) الصفحة 5730.

الآيـــــــــــات 73 - 75

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَلِدِينَ(73) وَقَالُوا الْحَمْدُ للّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْـدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَـاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ (74) وَتَرَى الْمَلَئِكَـةَ حَافِـينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَـبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِـىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَلَمِينَ(75)

التّفسير

المتقون يدخلون الجنّة أفواجاً!!

هذه الآيات -التي هي آخر آيات سـورة (الزمر)- تواصـل بحثها حول موضوع المعاد، حيث تتحدث عن كيفية دخول المؤمنين المتقين الجنّة، بعد أن كانت الآيات السابقة قد استعرضت كيفية دخول الكافرين جهنم، لتتوضح الأُمور أكثر من خلال هذه المقارنة.

في البداية تقول: (وسيق الذين اتقوا إلى الجنّة زمراً).

اسـتعمال عبارة (سـيق) (والتي هي من مادة (سـوق) على وزن (شـوق) وتعني الحث على السـير). أثار التسـاؤل، كما لفت أنظار الكثير من المفسّرين، لأنّ هذا التعبير يسـتخدم في مـوارد يكون تنفيذ العمل فيها من دون أي اشـتياق ورغبة في تنفيذه، ولذلك فإنّ هذه العبارة صـحيحة بالنسبة لأهل جهنم، ولكن لم استعملت بشأن أهل الجنّة الذين يتوجهون إلى الجنّة بتلهف واشتياق؟

قـال البعض: إنّ هذه العبارة اسـتعملت هنا لأنّ الكثير من أهـل الجنّة ينتظرون

أصـدقاءهم. والبعض الآخر قال: إنّ تلهف وشـوق المتقين للقـاء البارئ عزّ وجلّ يجعلهـم يتحينـون الفرصـة لذلك اللقاء بحيـث لا يقبلون حتّى بالجنّـة فيما قال البعض: إنّ هناك وسـيلة تنقلهم بسـرعة إلى الجنّة. مع أن هذه التّفسيرات جيدة ولا يوجـد أي تعارض فيما بينهـا، إلاّ أنّ هنـاك نقطة اُخرى يمكـن أن تكون هي التّفسير الأصح لهذه العبارة، وهي مهما كان حجم عشق المتقين للجنّة، فإن الجنّة وملائكـة الرحمة مشـتاقة أكثر لوفـود أُولئك عليهم، كما هو الحال بالنسـبة إلى المستضـيف المشـتاق لضـيف والمتلهف لوفوده عليه إذ أنّه لا يجلس لانتظاره وإنّما يذهب لجلبه بسرعة قبل أن يأتي هو بنفسه إلى بيت المستضيف، فملائكة الرحمة هي كذلك مشتاقة لوفود أهل الجنّة.

والملاحظ أن (زمر) تعني هنا المجموعات الصغيرة، وتبيّن أن أهل الجنّة يساقون إلى الجنّة على شكل مجموعات كلّ حسب مقامه.

ثم تضـيف الآية (حتى إذا جاءوهـا وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سـلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين)[1]. الملفت للنظر أن القرآن الكريم يقول بشأن أهل جهنم: إنّهم حينما يصـلون إلى قرب جهنم تفتح لهم الأبواب، ويقول بشـأن أهل الجنّة، إن أبواب الجنّة مفتحة لهم من قبل، وهذه إشارة إلى الاحترام والتبجيل الذي يستقبلون به من قبل ملائكة الرحمة، كالمستضـيف المحب الذي يفتح أبواب بيته للضيوف قبل وصـولهم، ويقف عند البـاب بانتظارهم. وقـد قرأنا في الآيات السـابقة أن ملائكة العذاب يسـتقبلون أهـل جهنم باللوم والتوبيخ الشـديدين، عندمـا يقولون لهم: قد هيئت لكم أسباب الهداية، فلم تركتموها وانتهيتم إلى هذا المصير المشؤوم؟!

1. الغدير، المجلد الثامن، ص 388.

أمّـا ملائكة الرحمة فإنّها تبادر أهل الجنّة بالسـلام المرافق للاحترام والتبجيل، ومن ثمّ تدعوهم إلى دخول الجنّة.

عبـارة «طبتم» من مادة (طيب) على وزن (صـيد) وتعني الطهارة، ولأنّها جاءت بعد السـلام والتحية، فمن الأرجح القول بأن لها مفهوماً إنشـائياً، وتعني: لتكونوا طاهرين مطهرين ونتمنى لكم السـعادة والسرور. وبعبارة أُخرى: طابت لكم هذه النعم الطاهرة، يا أصحاب القلوب الطاهرة.

ولكن الكثير من المفسّـرين ذكروا لهذه الجملة معنىً خبرياً عند تفسـيرها، وقالوا: إنّ الملائكـة تخاطبهـم بأنّكـم تطهرتم من كلّ لـوث وخبث، وقد طهـرتم بإيمانكم وبعملكم الصـالح قلوبكم وأرواحكم، وتطهرتم من الذنوب والمعاصي، ونقل البعض رواية تقول: إنّ هناك شـجرة عند باب الجنّة، تفيض من تحتها عينا ماء صافيتان، يشرب المؤمنون من إحداهما فيتطهر باطنهم، ويغتسلون بماء العين الأُخرى فيتطهر ظاهرهم، وهنا يقول خزنة الجنّة لهم: (سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين)[2].

الملاحظ أن «الخلود» اسـتخدم بشـأن كلّ من أهل الجنّة وأهل النّار، وذلك لكي لا يخشـى أهل الجنّة من زوال النعم الإلهية، ولكي يعلم أهل النّار بأنّه لا سـبيل لهم للنجاة من النّار.

الآيـة التّاليـة تتكون مـن أربع عبارات قصـار غزيرة المعاني تنقل عن لسـان أهل الجنّة السـعادة والفرح اللذيـن غمراهم، **حيث تقـول:** (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده). وتضيف في **العبارة التالية** (وأورثنا الأرض).

2. هذه الأحاديث في مجمع البيان في بداية تفسير سورة المؤمن.

المـراد مـن الأرض هنا أرضـ الجنّة. واسـتخدام عبارة (الإرث) هنـا، إنّما جاء لكونهم حصلوا على كلّ هذه النعم في مقابل جهد قليل بذلوه، إذ -كما هو معروف- فإن الميراث هو الشيء الذي يحصل عليه الإنسان من دون أي عناء مبذول، أو أنّها تعني أن لكل إنسـان مكان في الجنّة وآخر في جهنم، فإن ارتكب عملا اسـتحق به جهنم فإن مكانه في الجنّة سـوف يمنح لغيره، وإن عمل عملا صـالحاً اسـتحق به الجنّة، فيمنح مكاناً في الجنّة ويترك مكانه في جهنم لغيره، أو تعني أنّهم يتمتعون بكامل الحرية في الاسـتفادة من ذلك الإرث، كالميراث الذي يحصل عليه الإنسان إذ يكون حراً في استخدامه.

هـذه العبـارة -في الواقع- تحقق عيني للوعد الإلهي الذي ورد في الآية (63) من سورة مريم (تلك الجنّة التي نورث من عبادنا من كان تقياً).

العبارة الثّالثة تكشف عن الحرية الكاملة التي تمنح لأهل الجنّة في الاستفادة من كل ما هو موجود في الجنّة الواسعة، إذ تقول: (نتبوأ من الجنّة حيث نشاء).

يستشـف مـن الآيـات القرآنية أن في الجنّـة الكثير من البسـاتين والحدائق وقد أطلقـت عليها في الآية(72) من سـورة التوبة عبارة (جنـات عدن) وأهل الجنّة وفقاً لدرجاتهم المعنوية يسـكنون فيها، وأن لهم كامل الحرية في التحرك في تلك الحدائق والبسـاتين في الجنّة. أمّا العبارة الأخيرة فتقول: (فنعم أجر العالمين). وهـذه إشـارة إلى أن هـذه النعم الواسـعة إنّما تعطـى في مقابل العمل الصـالح (المتولد من الايمان طبعاً) ليكون صاحبه لائقاً ومستحقاً لنيل مثل هذه النعم.

وهنا يطرح هذه السؤال وهو: هل أنّ هذا القول صادر عن أهل الجنّة، أم أنّه كلام الله جاء بعد كلام أهل الجنّة؟

المفسّرون وافقوا الرأيين، ولكنّهم رجحوا المعنى الأوّل الذي يقول: إنّه كلام أهل الجنّة ويرتبط بالعبارات الأُخرى في الآية. وفي النهاية تخاطب الآية -مورد بحثنا وهي آخر آية من سورة الزمر- الرّسول الأكرم(ص) قائلة: (وترى الملائكة حافين من حول العرش) يسبحون الله ويقدّسونه ويحمدونه. إذ تشير إلى وضع الملائكة الحافين حول عرش الله، أو أنّها تعبر عن استعداد أولئك الملائكة لتنفيذ الأوامر الإلهية، أو أنّها إشارة إلى خفايا قيمة تمنح في ذلك اليوم للخواص والمقرّبين من العرش الإلهي، مع أنّه لا يوجد أي تعارض بين المعاني الثلاثة، إلا أن المعنى الأوّل أنسب.

ولهذا تقول العبارة التالية (وقضي بينهم بالحق).

وباعتبار هذه الأُمور هي دلائل على ربوبية البارئ عزّ وجلّ واستحقاق ذاته المقدسة والمنزّهة لكل أشكال الحمد والثناء، فإنّ الجملة الأخيرة تقول: (وقيل الحمد لله ربّ العالمين). وهنا يطرح هذا السؤال: هل أن هذا الخطاب صادر عن الملائكة، أم عن أهل الجنّة المتقين، أم أنّه صادر عن الاثنين؟

المعنى الأخير أنسب من غيره، لأنّ الحمد والثناء على الله هو منهاج كلّ أولي الألباب، ومنهاج كلّ الخواص والمقربين، واستعمال كلمة (قيل) وهي فعل مبني للمجهول يؤيد ذلك.

آمين ربّ العالمين

نهاية سورة الزّمر

مسابقة اقرأ القرآنية

1441 (13) 2019